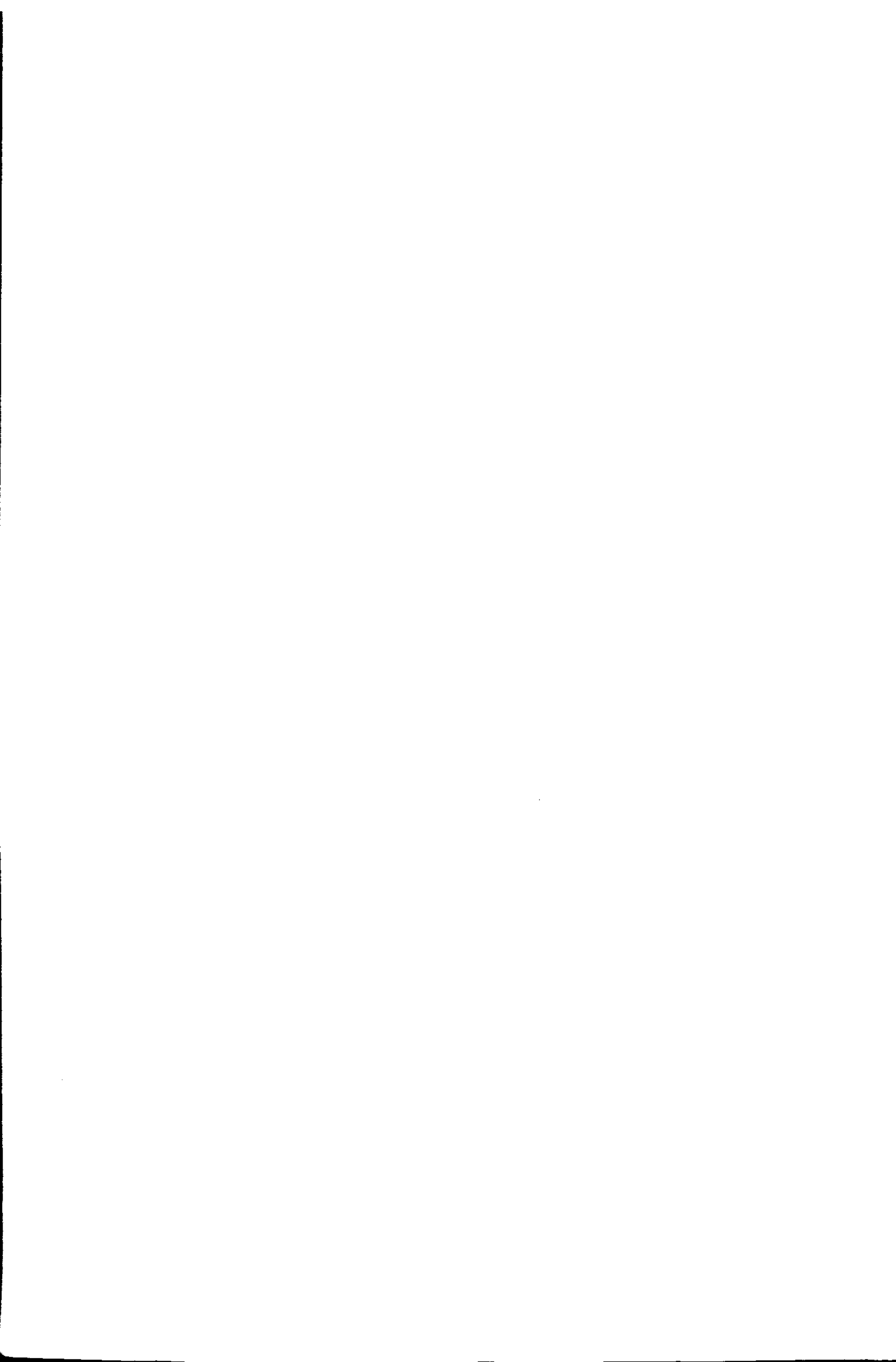


كتاب شهري يصدر عن
رابطة العالم الإسلامي

من جماليات التصوير في القرآن الكريم

محمد قطب عبد العال

السنة الثالثة عشرة
ربيع الأول ١٤١٥هـ - العدد ١٤٧



بسم الله الرحمن الرحيم



مدخل

للتصوير فى القرآن الكريم جمالياته الفنية التى تؤثر فى العقل والقلب معاً . فهى تخاطب الذهن فى أرقى عملياته الفكرية والإدراكية وتخترق كوامن الوجدان فترققه حتى يصبح صافيا حيًّا ونابضا متألقا . ومن ثم يكون المنطق التأثيرى آخذا بالنفس البشرية متملكا لجوانبها وأبعادها .

والتصوير ملمح أساسى فى النص القرآنى يتضافر فى تحقيقه اللفظ برنينه الصوتى ، والجملة بتراكيبها المتنوعة وبنغماتها الداخلية ، والفاصلة بإيقاعها المتلائم مع النسق اللفظى والسياق العام ، والمشهد الحى بتكريس التصوير فيه الى التجسيد الحى حركة وتأثيراً . . بل انه ليترقرق عذب الايقاع من آيات الأحكام والتشريع . .

وهذه المنظومة لجماليات التصوير تتوالى فى سياق دلالى فتعطى للمعنى عمقا وللهدف الدينى نفاذاً الى أعماق النفس البشرية فتهزها هزا .

والقرآن الكريم يرسم الصورة ، ويعرض المشهد بحيث تتوافر الجماليات فى تناسق فنى ، فتتآزر الأشكال والجزئيات مع الدلالات المعنوية المصاحبة لتحقيق المقصد الدينى والوجدانى فى وحدة تصويرية واحدة . .

إن التصوير فى القرآن نمط فى الأسلوب البيانى بلغ حدّ الإعجاز، وكان تأثيره فى النفوس نافذاً حتى الأعماق .



الفصل الأول :

- الجمـــال التصـويرى
- بين اللفظ والمعنى



يتبدى الجمال التصويرى فى القرآن الكريم شاملاً جوانب كثيرة تتآلف جميعا لتعطى لنا هذا الجانب الغالب فى القرآن. فالتصوير سمة واضحة الدلالة، وملمح أسلوبى متفرد، اتخذ تفرده من نفس العطاء اللغوى. ومع ذلك فهو ذو خصوصية متميزة، وهو نمط فى الاسلوب البيانى بلغ حد الاعجاز. وكان تأثيره فى النفوس نافذاً ومخترقا لاعماق النفس.

فثمة تناغم فى الايقاع الموسيقى ينساب من الحروف المتآلفة، والكلمات المتوازنة. والالفاظ — بما تحمله من دلالات فى المعنى وايقاع النسق العام — تتلاقى فى عبارات بحكمها رنين الايقاع وتتوالى منظومة الالفاظ والعبارات فى سياق دلالى — فتعطى للمعنى عمقا، وللاداء تصويراً ينفذ الى القلب فيهزه. والى الوجدان فيرققه.

وتآلف المعانى مع الالفاظ، يُعطى التوحد فى التعبير، ويُبرز الجانب الجمالى الكامن فيه. بحيث يبدو التكامل بين اللفظ والمعنى اندماج كامل فى النسق والدلالة، (وكأن المعانى جاءت مؤاخية للألفاظ، وكأن الالفاظ قطعت لها، وسويت على حجمها)[1].

وجمال التعبير لا يتأتى من توالى الألفاظ أو العبارات، فمجرد السرد اللفظى لا يدل على جمال فى ذاته، أو روعة فى أدائه. وإنما يتحقق ذلك من خلال التناسق فى الدلالة، والتآلف فى المعنى،

---

(١) القرآن المعجزة الكبرى.. محمد أبو زهرة ص ٩٥.

والتناغـم فى النسق. فليست لـلألفاظ جماليـات خاصة بها.. تـلازمها كلما استخدمـت، أو نُطق بها. فـاللفظ لا تكمـن فصاحتـه وبلاغتـه فى ذاته، فقـد يجمل، وقـد يقبح حسـب الاسلوب وطـريقة الاداء. فليس لـلالفـاظ حسن ذاتـى منفـرد، وانما حسنهـا يكمـن فى تـآلف الـدلالـة وانسجام المعنى، مـع تلاؤم فى الحروف وبُعد التنافـر، وتمايز فى الصورة، وتواصل فى الايقاع..

فـإذا وجـدت الألفاظ وفق المعانى، والمعانى وفقها، لا يفضل أحدهما على الآخر، فـالبراعة أظهر. كما يرى البـاقلانى. والتوافـق هنا ينسحـب أيضـا على الجانـب التعبيرى الخاص بـالصـوت الموسيقـى، والإيقاع المناسب.. فالحروف والكلمات والعبـارات ألحان لغوية تبدو فى ائتلافها وتآلفها كأنها قطعة واحدة.

إن كل لفـظ قرآنـى له معنـاه الخاص به، يتجلى فيـه هذا الاشعـاع التصويرى الجميل الذى عبر الجمل والتراكيب، فتتـآخى المعانى وتتلاقى الألحان فى انسجام وتوازن، ويصاحب ذلك كله الصور الخيالية الجميلة المنبثقة من هذا التآلف المنسجم، ومن هذا المعنى المطلوب.

واللفـظ فى القـرآن لـه تفـرده ودقتـه مـن حيـث المعنـى والـدلالـة والسياق، مما ينتفى معه الترادف.. وإن لاح الأمر من حيث الشكل.. فالسياق يضفـى على اللفظ مصاحبات دلاليـة وتصويرية تعطيـه ملمح التفرد والتميز..

وثمة ألفـاظ تردد متكررة فى آيـات القرآن الكريـم، وتحمل دلالات متفردة لا تتعداها الى غيرها من الدلالات التى يمكن أن يتصورها الإدراك الفكرى — وتصبح متلائمة تماماً مع المعنى والسياق الذى وردت فيه..

ومن ثـم تصبح الـدقة الـدلالية فى اختيـار اللفظ ملمحـا أسلوبيـاً متفرداً.

.. فمثـلا قد يتبـادر الى الذهـن أن كلمتـى «الريـاح» و «الريـح» بمعنى واحـد. وأن الترادف قائم مشترك بينهما.. ولكن السياق القـرآنى استخدم كلا منهما فى مجال تعبيرى خاص..

ولنلق نظرة على الكلمتين:

قال تعالى: ﴿**وهو الذى يرسل الـرياح بُشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحـابا ثقالا سقناه لبلـد ميت فأنـزلنا به الماء فـأخرجنا به مـن كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون**﴾[1].

صدق الله العظيم

نحن أمام مشهد كـونى، يتسم بالحركة والحياة والتـدفق. والانسان يستشعر من خلال حركة الاحياء هـذا الايقاع الجميل الذى ينتظم المشهد كله بجزئيـات الصورة الثلاث.. الريـاح — الماء — الثمرات.. صورة حسيـة متـلاحمة فى تمازج لا ينفصـل.. تشهـد بـرحمة الله وفعلـه. ولقـد وردت كلمة «الرياح» فى مقام الخير والرحمة والنعمة.

وتمثلـت حـركـة الـريـاح فى صـورة حسيـة عـاقلـة تحمـل البشرى وتستجيب لنـداء الربوبية فىُ عبـودية مسخرة وفى استسلام كـامل، تبشر برحمة الله، فتـدفع أمامهـا فى حركة متـوازنة مقصـودة سحابا ثقيـلا ممتلئا بالخير العميـم الذى سرعـان ما ينهمـل ماءً يحمـل النماء والحياة لـلارض الجدبـاء فـاقـدة الخصـوبـة والنماء.. واذا بهذا الموات ينشـق عـن حيـاة

---

(١) الاعراف آية ٥٧.

بهيجة، وتنطلق النبـاتات من كل نـوع وشكل، زاهية، متألقـة، متخمة بالثمار.

وأمام هـذه الصورة المشهـدية الحية التـى لا تخطئها عين ولا ينكـرها عقل يأتـى الربط بين الحياة النـاشئة بقدر الله فى الأرض وبين البعث يوم القيامة وفق قدر الله ومشيئتـه. ويرى الزمخشرى فى مجال الرإط بين الحسى والمعنـوى، أأه (لا فرق بين الإخـراجين إذ كل واحـد منهما اعادة للشـىء بعد إنشائه)[1].

ولقد تكرر هذا الربط بين الحسـى المشاهد والمعنوى المغيب فى آيات كثيرة فى القرآن الكـريم. وكـانت الصـورة الحسية التـى تبدأ (بـالريـاح) المبشرة بـالنعيـم والخير مـدخـلاً الى تـأكيـد المعنـى العميـق وراء المشهـد المحسوس كله.. ويصبح الموقـف كله تدليلا بالصورة والحركـة والمعاينة على البعث والإحياء فى الآخرة.

يقـول ابن كثير (وهـذا المعنى كثير فى القـرآن، يضرب الله المثل ليـوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها، ولهذا قال.. لعلكم تذكرون)[2].

ولقـد وشـت الألفاظ المكونة للحركة والصورة بالدلالة الدينية فى إيقاع منسجم فألفاظ الصورة الكليـة ا ولى هى: الرياح — سحاب — ماء — أرض موات — ثمرات..

أما الدلالة الدينية فوشى بها لفظ (نخرج الموتى) أى البعث.

ولعلنا نلاحظ أن حركات التواصل فى النماء على الأرض، مفصلة فى حركة الحياة.. من حيث التطويل، والتجزىء والتتابع السببى.. الذى

---

(١) الكشاف جـ٢ ص ٦٦.

(٢) مختصر ابن كثير. محمد على الصابونى جـ٢ ص ٢٧.

يغلفه جميعا قدرة الله ورحمته .

أما الدلالـة الدينية فقد جـاءت قصيرة ، موجزة ، حاسمـة لا تحتاج إلى شرح أو تجزىء أو تطويل . فـدلالة القدرة على البعث لاح منهـا دلالة القدرة على الحياة فى الأرض . .

(وإن القدر الذى يَجْرِى بإخراج الحيـاة من الموات فى الدنيا ، لهو ذاته القـدر الذى يُجْرِى الحيـاة فى الموتـى مرة أخـرى . . والنـاس ينسون هـذه الحقيقة المنظورة ، ويغرقون فى الضلالات والاوهام)[1]

وهكذا رأينـا كيف قامت كلمـة «الرياح» بهذا الدور المبشر بـالنعمة والرحمة فى حـركة قـدرية متواصلـة ، وكيف كانـت مفتتح الحيـاة الحسية والمعنوية معاً .

. . ولنأخذ نموذجا آخر يوضح الـدلالة المعنوية القرآنية لاستخدام كلمة «الرياح» وكذلك الربط بين المشهد المحسوس والمعنوى المغيب .

قال تعالى : **﴿والله الذى أرسل الـرياح فتثير سحابا فسقنـاه الى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور﴾**[2] .

. . الآيـة الكريمـة وردت فى سـورة فاطـر . وهـى سورة لها نسقهـا الخاص فى الموضوع والسياق العام . وهى ذات إيقـاعات مؤثرة تهز القلب البشرى وتوقظه من غفلتـه وهو يتأمل هذا الكون الفسيـح ويتدبر قدرة الله وآياتـه المبثوثة فيه . وتستمـد هذه الايقاعات الموحيـة اتساقها من ينـابيع الكـون وهـى تنطبـع على صفحة القلـب فى مجتلى بصرى محسـوس فهـذا الكون الهائل تتجلى فيه يد القدرة الإلهية . . ومـا الآية التى نحن بصددها

---

(١) الظلال جـ٣ ص ١٣٠٠ .
(٢) سورة فاطرة آية ٩ .

إلا جزئية صغيرة من هذا الكون .

فنحن أمـام مشهد محسـوس نرى فيـه بعين البصر الريـاح المرسلة ، وهـى ليست أيـة ريـاح وإنما هى الـرياح التـى تحمـل فى حركتهـا الخير والنعمة . . وتتحـرك فى جنبات الكـون الفسيح فتحمل مـع كل حـركتها أولى بشائر الرحمة الإلهية . . وهى تثير السحـاب ، تجمعه وتكثفه ، وتدفعه إلى بلد ميت ، شاء الله له أن تـدب فيه الحياة . وكما أحيا الله الارض يحيى الموتى من القبور.

ولعل الارتباط بين الحسـى والمعنوى واضح تماماً كما أدركنـاه فى الآية السابقة .

كما أن الهدف من هذا الـربط يتمثل فى لفت الذهـن من المحسوس المشاهد الـذى لا يختلف عليه أحد . . إلى المعنوى المغيـب الذى يتجادل الناس حوله .

(روى الإمام أحمد عن أبـى رُزين العقيلى قال : قلت يـارسول الله : كيف يُحيـى الله الموتى؟ . ومـا آية ذلـك فى خلقه؟ . فقـال : (**أما مـررت بوادى أهلـك مُمحِلا ، ثـم مررت بـه يهتز خَضِراً؟** . قلت : نعـم يارسـول الله . قال : **فكذلك يحيى الله الموتى ، وتلك آية فى خلقه**)[1] .

وهكــــذا تهتـــز الأرض وتربو وتخرج من كل زوج بهيج بعد موات وجدب . وكانت الرياح هى فعل الخير اول الذى ساق النعيم معه . .

وهذا المشهـد يتردد فى معرض دلائل الايمان الكونيـة فى القرآن لأنه واقـع ملمـوس ، ولأنه يهز القلب حين يخترقه الجمال ، فيسعى إلى تلمس

---

(١) صفوة التفاسير جـ٢ ص ٥٦٧ .

المشاعر النيرة وراء المشهد بما يحمله من بهجة وزينة وثمر . . وبما يوحى به من عقيدة البعث التى لا تحتاج إلى مكابرة جاهل أو عناد مشرك غافل .

(والقرآن يتخذ موحياته من مألوف البشر المتاح لهم ، مما يمرون عليه غافلين . وهو معجز معجب حين تتملاه البصائر والعيون)[1] .

ونلاحظ فى الآية وصف الرياح بالإثارة ، كما وصفت فى الآية السابقة بالبشرى . . فتحددت الدلالة فى الأولى تحديداً واضحاً ، مما استدعى التفصيل والتجزىء . أما فى الآية التى نحن بصددها ، فنلمس إيجازاً واضحاً فى متواليات حركة النمو . . حيث تحددت فى جزئيات ثلاثة رياح/ سحاب/ إحياء الجدب . . وكأنما الآية تسرع لتأكيد الفكرة الدينية والتى تسعى إلى إبرازها الآية . . وهى «النشور» . . ومن ثم جاءت «النشور» بالمعنى المراد تماماً . . وهو البعث — فى حين كان إخراج الموتى — صورة فعلية حركية تحدد المراد أيضا وهو البعث . . وفى مجال دلالة الماضى والمضارع فى الآية . . من حيث إن . . المضارع «تثير» توسط بين الماضى فى «أرسل» و«أحيينا» . . يقول صاحب الكشاف . مبرراً هذا التناول فى زمن الفعل ، فبين أنه جاء على هذا الوضع (ليحكى الحال التى تقع فيها إثارة الرياح السحاب ، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية ، بحال تستغرب أو تهم المخاطب)[2] ولا شك أن إرسال الرياح وسوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بالمطر بعدُ الجدب من الدلائل على القدرة الإلهية الباهرة ، فتلاءم زمن الماضى معها من

---

(١) الظلال جـ٥ ص ٢٩٢٩ .

(٢) الكشاف ج٣ ص ٢٦٩ .

حيث الإرسال والإحياء، ذلك لأنـه أدخل فى الاختصاص وأدل عليه . . ومـن ثم يتحـدد التشبيـه (كذلـك النشـور) وتنكشف الـدلالـة الدينيـة العميقة وراء المشهد ككل .

كما أن لفظ «يثير» يـوحى بملحظ علمى يـرى أن حركة الـرياح بين السخـونـة والبرودة وبين حـركتهـا الصاعـدة والهابطـة وسيلـة لتكثيـف البخار، وتثقيلـه سحابـا ممتلئاً بـالماء، يتساقـط لتكتمل دورة الحيـاة من جديد . . رياح، سحاب، ماء، أرض . . وهكذا . .

. . ومع أن الآيتين قـد ربطت بين الحسـى والمعنوى وأبـرزتا دلالـة الخيروالنعمة والـرحمة إلا أن كلمة «الرياح» قـد تأتى دون أن يكـون هناك هذا الربط، بل تكتفى بدلالة المعنى فيها . .

قال تعـالى : **﴿وأرسلنـا الـريـاح لـواقح فـأنـزلنـا مـن السماء مـاءً فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾**[1] .

وقال تعالى : **﴿ومن آياتـه أن يرسل الرياح مبشرات وليـذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾**[2] .

وقال تعالى : **﴿وهو الذى أرسـل الرياح بُشرا بين يدى رحمتـه وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً﴾**[3] .

فى آية الحجر تـوضيح لفعل الرياح وأثره العميـم على الناس . فالماء نعمـة كبرى أنعم بها الله على مخلـوقـاته . ودور الـريـاح فى إحداث هـذه النعمة لا ينكر. والريـاح تنطلق وفق نواميس كونيـة، حاملة الماء وفقا لها

---

(١) سورة الحجر الآية ٢٢ .
(٢) سورة الروم الآية ٤٦ .
(٣) سورة الفرقان الآية ٤٨ .

أيضـا ، ثـم يتسـاقـط الماء ، فيعم الخير. ويصيرهـذا الماء السـاقـط مـن السحاب الملقح ، ماءً عذبا صالحا للشرب والسُّقيا .

ثـم تظهـر الآية القـدرة الالهيـة فى خـزنـه وحفظه وعجـز البشرعـن ذلك . . فنعمـة الماء التى بشرت بها الرياح وأحـدثتها انما هو قـدر الخالق الذى أبدع خلقه .

ولعلنا نلاحظ حَصْرَ النعمة فى الماء . . وهنا ملحظ علمى وراء تعبير «الرياح لواقح» فهى تشيرإلى تلقيح السحابـة السالبة بالسحابة الموجبة . فالملاقحة هنا بين سحاب وسحاب ينتـج عنها كهرباء . . فكأن الملاقحة وسيلة لتكثيـف السحب ثم انهمارها . . وتلفتنـا الآية إلى أهمية الـرياح فى حـركتها وهبـوبها فى تلقيح النبـاتـات — وكل ذلـك نعم إلهيـة . وتسيير الـرياح للسحـاب المبشربـالخير، تصاحبـه دلالات أخـرى ، منها إفـادة الكائنات الحيـة من التسيير. فاللقاح ينتج الماء ، كما يسـاهـم فى إخصاب البذور والنبـاتات والزهـر. فيبدو الجمال والمنفعـة معاً (آية الـروم) فيتذوق الإنسـان جمال الكـون والطبيعـة ويذوق مـن خيراتها الحسيـة مـا يمتعـه ويسعده . كما تعطـى الآية ذاتها نعمـة الحركة والتـواصل والانتقـال بفعل الحركة المنبعثة من هبوب الرياح . فتمخـر السفن البحار فى حركة دائبة . . فيحقق الناس ما يحبون مما يتوجب شكرهـم على نعم الله .

. . وقـد يعطـى السياق القـرآنـى دلالـة مغايـرة للمعنـى المراد . . فتصبح الـرياح وقفـا على حركتهـا الذاتيـة إذ تعطى المعنـى الحسى وهـو الحركة . . مجرد الحركـة . . وهى نعمـة تقف وراء حـركة التسييركلهـا . . برغـم تجرد السياق مـن نعم أخـرى كالمطـر والإخصاب والإحيـاء المرتبطة بالرياح .

قال تعالى : ﴿**واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً**﴾[1] .

يهدف القرآن الكريم من خلال استخدام التشبيه إلى التصوير والتأثير معاً . ومفردات الصورة الجمالية هنا مستقاة من الطبيعة بعناصرها المختلفة . والدقة فى التشبيه تعطى للمعنى وضوحاً وتأثيراً نفسيا قوياً .

والصورة التى أمامنا تتناول حال الدنيا الفانية بحال النبات وقد جف فأضحى هشيما تطيره الرياح .

ولكن «الرياح» كعنصر فاعل فى الصورة يعطى سرعة الحركة الدالة على سرعة الزوال والتلاشى . فإذا كانت الرياح سابقاً عنصراً بناءً للحياة فى بهجتها ونمائها وجمالها ، فهى هنا تحمل دلالة تلائم السياق العام الذى تضمنته الصورة الجميلة .

فالمشهد الطبيعى كله مشهد سريع لا يستغرق الطول أو التفصيل . ولكنه قصير كأنه يمر أمام العين كلمحة . . تلك اللمحة التى تتأكد باختزال الصورة لكل انواع التفصيل والتجزىء وتجريدها من مكونات الصورة بامتدادها الزمانى وتراخيها فى التتابع الزمنى والمكانى . . والإبقاء على العناصر الملائمة للهدف الدينى . . وهو سرعة زوال الحياة وفنائها .

فالماء ينزل . . نزولاً حركيا يتلاءم مع الحركة الكلية للصورة . والنبات يختلط مجرد اختلاط فى حركة تداخل ، تعطينا النتيجة فجأة باختزال حاسم للحركة فى الزمن . لنصل الى النتيجة وهو الهشيم . .

---

(١) سورة الكهف الآية ٤٥ .

ليأتى دور الريـاح فى حركة حاسمة مقصودة قوية تـذروه هباءً . فالسياق كله حـركة ، ومـن ثم حملت الـرياح معنـى الحركة فقـط . . وساهمت فى معنـى القصر وسرعة التـلاشى . وبيـان قـدرة الله على الإفناء والإحيـاء ، لايعجزه شىء فى الأرض أو السماء .

يقول الـزمخشرى فى توضيح الصورة التشبيهيـة «شبه حال الـدنيا فى نضرتها وبهجتهـا ، وما يتعقبهـا مـن الهلاك والفنـاء بحال النبـات يكـون أخضر وارفاً ثم يهيج فتطيره الرياح كأن لم يكن»[١] .

ولقد توافـر للصورة التعبيرية كل عنـاصر الجمال التعبيرى من صدق ودقة وجمال فنـى ، وبرز الجمال الفنى فى دقـة التعبير عن السرعـة الخاطفة المثيرة لمدركات الخيال .

«وقــد استخــدم النسـق اللفظــى فى تقصير عــرض المشهــد كما استخدمـت وسائل العرض الفنيـة لهذا الغرض . فهذا «التعقيـب» الذى تمثله هذه «الفـاء» فى تتابع المراحل ، يتفـق مع طريقة العـرض السريعة . ثم هذا الماء النـازل لا تختلط به الأرض فتنبت ، بل يختلط به نبات الارض مباشرة . وهـذه حقيقة ، ولكنها حقيقـة تعرض فى الوضـع الخاص الذى يحقق السرعة المطلوبة)[٢] .

وأما كلمـة الريح فقد وردت فى السيـاق القرآنى واشية بمعنـى عام محدد صاحبهـا فى الإنسان التـى وردت بها . . وهو معنى غـالبا مـايرد فى مقام العذاب . والتخويف . . إنـه كلمة تحمل الخوف ، والشر، والدمار، تسلط على الجاحدين فتحيلهم الى أعجاز نخل خاوية .

---

(١) الكشاف جـ٢ ص ٣٩٢ .

(٢) التصوير الفنى — سيد قطب ص ١٢٩ .

«ان ريح الشر، تهب مدمرة عاصفة، لاتهدأ، ولاتدع الناس يهدأون، فهى لاستمرارها ريح واحدة، لايشعر الناس فيها بتحول ولاتغير، ولايحسون بهدوء يلم بها، فهى متصلة فى عصفها وشدة تحطيمها، وذلك مصدر الرهبة منها والفزع»[1].

.. قال تعالى: **﴿وأما عادٌ فأهلكوا بريح صرصر عاتية. سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيامٍ حُسوما، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾**[2].

وسورة الحاقة يتلقاها القلب البشرى بهزة نفسية عميقة، فيها الهول الذى يفزع النفوس، بمشاهده المتوالية. وأسلوب الصورة يحاصر الحس ويحتويه.. ونحن أمام مشهد يرمى بالرعب فى القلوب، وجاءت الألفاظ موحية بكل هذا الرعب، وبدت الصورة الخيالية أكثر تجسيما وإبانة..

فهاهم قوم هود — عاد — قد أهلكهم الله سبحانه بالريح العاصفة ذات الصوت المدوى ولقد تجاوزت بعتوها الحد فى الهبوب والبرودة. واستمرت هذه الريح متتابعة حتى أحالت القوم جيفا متآكلة كأنهم أصول نخل خاوية.

قال المفسرون: كانت الريح تقطع روءسهم كما تقطع رؤوس النخل، وتدخل فى أدبارهم حتى تصرعهم، فيصبحوا كالنخلة الخاوية الجوف.

ومصرع عاد مشهد حاضر شاخص يصاحبه هول مروع يسيطر على

(١) القافلة عدد جمادى الآخرة ١٤١١. دلالات الالفاظ القرآنية د. حامد صادق.

(٢) سورة الحاقة الآية ٦، ٧.

جنباته ، وكانت السيادة فى المشهد للريح العاصفة المزمجرة التى أتت على كل شيء . . ومن ثم تأكد معنى التخويف والعذاب والنقمة التى تشى بها كلمة الريح ، فأعطت للمشهد حيويته وهوله معاً .

«إنه مشهد حى ، ماثل للقلب ، ماثل للعين ، ماثل للخيال»[1] .

ويتأكد هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿**إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصرا فى يوم نَحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر**﴾[2] .

فالريح العاصفة شديدة البرودة والهبوب تحمل العذاب لعاد . . فى يوم مشئوم دائم الشؤم فلم يبق أحد الا هلك .

قال الخازن : كانت الريح تقلعهم ثم ترمى بهم على رؤوسهم فتدق رقابهم وتفصل رؤوسهم من أجسامهم فتبقى أجسامهم بلا رؤوس كعجز النخلة الملقاة على الارض[3] .

وجرس اللفظ فى الآية الكريمة يصور نوع الريح فى عنفها وبرودتها وعصفها الشديد .

والريح التى أرسلت على عاد هى من جند الله ، وهى قوة من قوى هذا الكون تسير وفق الناموس الكونى ، يسلطها الله على من يشاء وفق أداء كونى يتلاءم مع المشيئة الالهية . .

والتشبيه يصور عذاب الله تعالى تصويراً مشهوداً وكانت «الريح» الأداة الفاعلة . لقد انتزعتهم كما تنزع جذور نخل غاصت فى أعماق الارض . . فأحدثت للتشبيه هوله وبريقه وعنفه (هذا بريق التشبيه

---

(١) الظلال جـ٦ ص ٣٦٧٦ .
(٢) سورة القمر الآية ١٩ ، ٢٠ .
(٣) صفوة التفاسير جـ ٣ ص ٢٨٦ .

المرعد الـذى يصور مـاينزل بالمشركين الـذين طغـوا فى البلاد وأكثـروا فيها الفساد)[1] .

وتـرد كلمـة «الريـح» فى سيـاق تشبيهـى يعقـد علاقـة حميمـة بين المعقـول المعنوى وبين المحسـوس المشـاهـد . . ويصبح للكلمـة الـدور الفـاعل فى ابـراز هذا المعنـى الـدينى المقصـود . . ولاتتخلى الكلمة عـن دلالتها المقصودة . . وهو الإهلاك والتدمير . .

قال تعالى : **﴿مثل مـاينفقون فى هذه الحياة الـدنيا كمثل ريـح فيها صِر أصابـت حرث قـوم ظلموا أنفسهـم فأهلكتـه وما ظلمهـم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾**[2] .

فالريح تحمل الدمـار والهلاك للحرث والزرع والضرع حتى تحيله الى هباء . ومن ثـم تساهم بحركتها العـاصفة الباردة الشديـدة فى إبراز المعنى المراد، وهو أن العمل المبذول — و إن ظنه الكافرون خيراً — لا يؤتى ثمره مالم يكـن نابعـاً من الإيمان ومـوصولا بـه . «واللفظة ذاتها كـأنها مقذوف يلقى بعنف فيصور معناه بجرسه النفاذ» .

وقريب من هذا الأداء التصويرى الجميل قوله تعالى : **﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الـريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد﴾**[3] .

فأعمال الكافرين و إن جـاءت تحمل الرغبة فى الخير، أعمال محبطة، لافـائدة ترجـى منهـا ، ولا يعود على أصحـابها ثـواب أو جزاء ، مثلهـا فى

---

(١) القرآن المعجزة الكبرى محمد أبو زهرة ص ٢٤٨ .
(٢) سورة آل عمران الآية ١١٧ .
(٣) سورة ابراهيم الآية ١٨ .

ذلك مثل الـرماد الهش الذى لا يصمد أمـام قوى الريح العتيـة فيتلاشى هباءً منثوراً .

ولقـد صورت الآيـة هذه المعنـى الدينـى تصويـراً حسيا جميـلا يثير مدارك الخيال ، لنقف على حالة الضياع والتـلاشى بفعل الريح العاصفة وهى تذرو الرماد وتذهب به بدداً .

وتغيرت دلالة «الريح» . . فى سورة الأحـزاب . . حيث كانت نعمة على المسلمين ، ونقمـة على الكـافـرين . . وهـى فى مجال النقمـة لا تـزال تحمل المعنى الأصلى للتخويف وبث الهول والدمار.

قال تعالى : ﴿يا أيها الـذين آمنوا اذكـروا نعمة الله عليكم إذ جـاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً﴾[1] .

والآيـة تذكـر المؤمنين بفضلـه و إنعامـه عليهـم فى غزوة الأحـزاب ، حيث حشـد الكافرون جنودهـم صوب المدينة ، فاشتـد الخوف بالمؤمنين وظنوا ظنـوناً كثيرة ، ولاح النفـاق فى قلوب المنـافقين حتى قـال بعضهم : يعدنا محمد كنوز كسرى وقيصر ولا نقدر أن نذهب إلى الغائط . ويدرك الله المؤمنين برحمته فيرسل على الأحزاب ريحاً شديـدة عاصفة قلعت البيوت ، وكفـأت القدور، وألقـت مـن شدتها بـالـرجال على الأرض ، كما أرسـل الملائكة فزلزل الكافرون زلزالاً شديداً .

لقد كانت الـريح عنصراً حاسماً فى المعركة فكانـت نعمة ، ونقمة فى آن واحد .

وجاء لفـظ الريـح نكرة «ريحا» وهـذا التنكير يفيد التعـذيب العـام المصاحـب للكلمة مـع ما يصـاحبه مـن دلالات أخرى كـالتخويـف ،

---

(١) سورة الاحزاب الآية ٩ .

والإهلاك والتدمير. ولتأخذ فى سياق المعركة دورها الفاعل كأحد العناصر الفعالـة فى الحرب، ولتصبح جُنداً من نـوع آخر. وتلاءم هـذا التنكير مع «جنودًا لم رتوها» وهم الملائكة، والـذى يفيد أيضا التعظيم، والتهويل، والتخويـف، وذلك كله إشعـاعات نابعـة من موقـف الحرب والعراك، ومتناسقة تماماً مع السياق والنسق العام.

وقـد ترد الـريـح فى معنى النعمـة فقط. ومـن ثـم تنسلخ اللفظـة انسلاخـاً تامـاً من المعنى الـدلالى الذى اتخذته، كما رأينـا سابقـا، ولكن ذلك يـأتى فى مجال الإرادة الالهية حين تمنـح رسولاً مـن الرسل ميـزة يتفرد بها.. فتصبح «الـريح» إحـدى المنظومـات الكونيـة التى سخـرها الله لرسـوله. وهذا التسخير إنما هـو توظيف للقـوة فى مجال النعمة، وتسخير لاداة التـدمير فى مجال الفضل والمنّـة. وهذا تغيير لمفـردات طبيعية بفعـل الإرادة الإلهية..

وهـذا أبين للنعمـة وأظهر للمنـة (فـإن الشـىء إذا توقـع منـه الشر والأذى، ثم اقترن ذلـك بالنفع والخير، كـان المن به أعظم، والإنعـام فيه أظهر، بخلاف مـا كان مظنة خير ورحمة، فإنه وإن كـان مبهجا، إلا أنـه لا يصـل إلى إبهاج ذلـك الـذى تـوقـع الشر منـه، حيـث يكـون مصـدر نعمة)[1].

قال تعالى: ﴿**ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر**﴾[2].

وقـال تعـالى: ﴿**فسخـرنـا لـه الـريـح تجرى بـأمـره رخـاءً حيـث أصاب**﴾[3].

---

(١) القافلة.. مصدر سابق.

(٢) سورة سبأ الآية ١٢.

(٣) سورة ص الآية ٣٦.

. . لقد سخر الله لسليمان الريح تقطع به المسافات الشاسعة فى ساعات معدودات تحمله مع جنوده فتنتقل به من بلد الى بلد . . وتنوعت الدلالة فى آية ص بالقيد الذى ورد وهو رخاءً . . فالرخاء لغة هى الريح اللينة ، والمعنى يتضاد مع العصف الشديد . والرخاء — سياقا — الانقياد حسب الإرادة والمقصد . وهو مأخوذ من معنى التسخير الذى منَّ الله به على سليمان عليه السلام . والمعنى أن الريح تسير بأمره منقادة لينة طيبة حيث قصد وأراد . إلا أن «تسخير الريح لعبد من عباد الله بإذن الله ، لا يخرج فى طبيعته عن تسخير الريح لإرادة الله . وهى مسخرة لإرادته تعالى ولاشك تجرى بأمره وفق نواميسه . فإذا يسر الله لعبد من عباده فى فترة من الفترات أن يعبر عن إرادة الله سبحانه وأن يوافق أمره أمر الله فيها ، وأن تجرى الريح رخاء حيث أراد ، فذلك أمر ليس على الله بمستبعد»[١] .

كما أن الريح قد يتحدد معناها المغاير للمعنى الأصلى بصفة تحددها ، بحيث يتلاءم المعنى مع السياق العام[٢] .

قال تعالى : **﴿هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبةٍ وفرحوا بها جاءتها ريحٌ عاصفٌ وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾**[٣] .

فالريح الطيبة هى الريح اللينة الطرية التى تساعد على تسيير

---

(١) الظلال جـ ٥ ص ٣٠٢٠ .
(٢) انظر تفصيل آيات القرآن ص ٥٠٥ .
(٣) سورة يونس الآية ٢٢ .

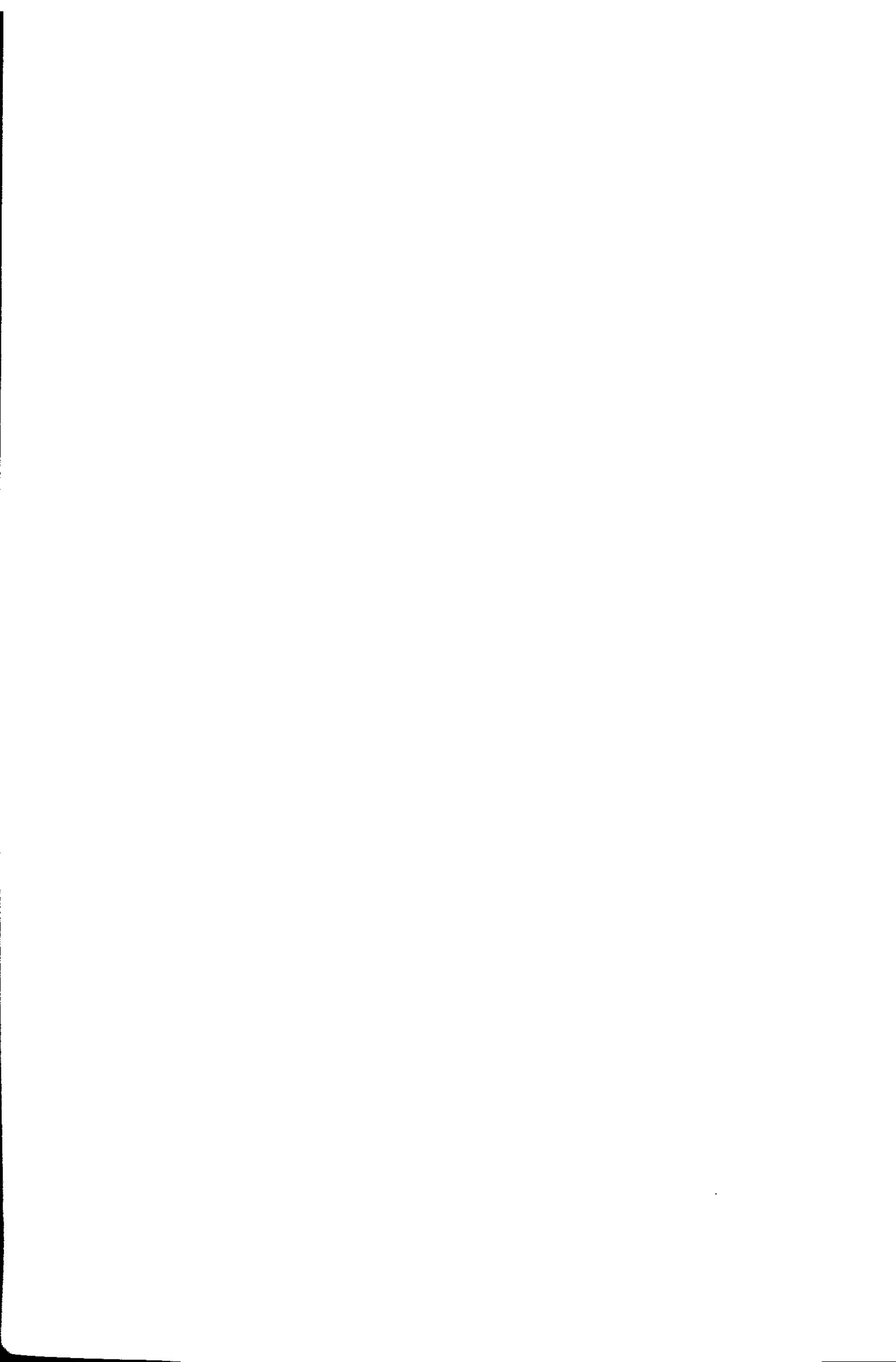
السفن فى هوادة واطمئنان ، الأمر الذى يستدعى الفرح والشعور بالأمن .

ولكـن سرعان مـا يتغير المشهد إلى عنـف وقصـف وموج وخـوف ، فيعود للـريح مرة أخرى الـدلالة المصاحبـة لها وهو التخويف والتعـذيب والإهـلاك . . والتـدمير ممـا يوحـى بـالهلاك والموت ، فيتحـول الأمان الى خوف و يتوجه القوم إلى الله أن ينجيهم من هذا الكرب .

ومـا بين الفـرح والخوف — الريـح الطيبـة والـريح العـاصفـة — يتحدد نمـوذج بشرى ورد ذكره كثيراً فى القـرآن . . إذ تتحدد الطبـائع بعد تـذوق رحمة الله بعـد الضر . . وحين يصيبهـم الضرر ثـم ينجـون منـه . . و يبرز هذا النموذج عبر مشهـد قوى من مشاهـد القرآن التصويريـة . إنه مشهد حى تراه العيـون وتتابعه المشاعر وتخفق معه القلـوب . ولقد قامت حركة الريح بهدوئها وعصفها بدور فعال فى إبراز ذلك كله .

الفصل الثانى :

● التنوع والوحدة .



فى إطار المشهد التصويرى الذى يشع جمالاً وجلالاً — وهو جانب تصويرى هام فى القرآن الكريم — تتضح عناصر البناء وهى تتلاصق أو تتضاد أو تتوازى ثم تلتحم العناصر جميعها مكونة من الشكل العام للمشهد أو الوحدة الكلية التى تحتويه. وكل عنصر من عناصر البناء يحمل دلالته الخاصة التى تتنامى فى انسجام مع دلالات العناصر الأخرى: بحيث يعطى الجزء دوره الفاعل فى إتمام الصورة المشهدية الكلية. ومن ثم يبرز من خلال المعنى العام هذا التوافق الموجود بين العناصر، فتشكل العلاقة القائمة بين الجزئيات مما يترتب عليه تحقق الانسجام، وتتأكد الوحدة فى المشهد والصورة. والجمع بين الأشكال والجزئيات والدلالات وسيلة لتحقيق الوحدة. ومتى توفر ذلك فسوف يتيح للمتأمل أن يرى الصورة والمشهد ككل للوهلة الأولى ثم يتدرج نحو رؤية الجزء. وحين تتحقق الوحدة عن طريق الفكرة والأداة التعبيرية تكون فى أوج قوتها.

فالقرآن الكريم يرسم الصورة ويعرض المشهد بحيث تتوافر له جماليات التناسق الفنى فى وحدة المشهد التصويرى وتوزيع أجزائه فى توازن وتقابل دقيقين.

والوحدة التصويرية تقتضى التنويع ليتم التناسق مع الأجزاء.

(ودلالة هذا التنويع حاسمة فى أن (التصوير) عنصر أساسى فى

أسلوب القرآن وأن التعبير لاينتهي إلى أداء المعنى الذهنى مجردا، انما ينبض بطبعيته بصورة حية للمعانى، تختلف هذه الاختلافات الدقيقة اللطيفة، حسب اختلاف الأجزاء والألوان)[1].

واستخدام القرآن الكريم للفظ كعنصر جزئى استخدامٌ فذٌ يتلاءم مع وحدة السياق إذ يتحدد دور الكلمة من خلال المعنى العام الذى تحتشد كل العناصر لإبرازه، ومن ثم تتغير وظيفة الكلمة كأداة فنية تعبيرية حسب الوحدة التصويرية التى تنضوى فى إطارها العام. .

وفى مجال صور النعمة التى أفاءها الله على الإنسان وردت كلمة «الأنعام» متسقة تمام الاتساق مع الوحدة التصويرية الكلية، بحيث يتنوع استخدامها الوظيفى بتنوع الوحدة الحسية فى المشهد. . ومن ثم تكشف عن المعنى المراد.

قال تعالى: **﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمالٌ حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الانفس إن ربكم لرءوف رحيم﴾**[2].

والأنعام — الإبل والبقر والغنم والماعز — نعمة من نعم الله. وهى إحدى النعم فى منظومة النعم الإلهية فى الكون كله. . السماء، والبحر، والبر. .

والأنعام — وقد وردت فى نسيج هذه المنظومة — يتحدد معناها العام وفق النسيج كله. فهى تفيد المنفعة والجمال معاً.

فهى من حيث المنفعة — ضرورة الحياة — يستدفىء بها الإنسان،

(١) التصوير الفنى فى القرآن ١١٩.
(٢) سورة النحل الآية ٥ — ٧.

فمنها يـأكل ويشرب ويلبس ، كما أنها وسيلـة للانتقال والعمـل ، فتريح النـاس مـن المشقـة وثقـل الأعبـاء . أمـا الجمال فيتبـدى فى زينـة المنظـر والاستمتاع به . .

والآيـات التـى وردت فيهـا كلمة الأنعـام كلهـا تجمـع بين المنفعـة والجمال[1] .

وآية «الأنعـام» تعبرعن رحمة الله بعبـاده حين سخرهم ذلـك كله . وأشارت الكلمة إلى ثنائية المنفعة والجمال معاً .

يقول الـزمخشرى «مَنّ الله بـالتجمل بها كما مَـنّ بالانتفـاع بها ، لأنه من أغـراض أصحاب المواشى ، بـل هو مـن معاظمها ، لأن الـرعيان إذا روّحوها بالعشـى ، وسرحوها بالغداة فزينت بـإراحتها وتسريحها الأفنية ، وتجاوب فيها الثغـاء والرغاء ، آنست أهلهـا وفرحت أربـابها وأجلّتهم فى عيون الناظرين إليها ، وأكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس)[2] .

وهـذا هو دور الأنعـام فى حيـاة الناس أدتـه اللفظـة أداءً كامـلاً فى سياق إبراز منظـومة النعم الإلهية . . فالخيل وغيرهـا منفعة وجمال ، وهى نعمة . والماء والشجر والزرع والنخيل والـزيتون منفعة وجمال ، وهو نعمة . والسماء بنجومهـا وسحابها وكواكبهـا وليلها ونهارهـا . . منفعة وجمال . . وهـى نعمة . . والبحـر، والسمـك ، والـلآلىء والفلك والموج . . منفعـة وجمال . . وهو نعمـة . . ويمضى السيـاق طويـلاً فى إبراز هـذه الوحـدة الكليـة التـى تبرز النعمة الإلهيـة الكبرى التـى أنعـم الله بها على البشر. . بحيث تكشف مع المنفعة الجمال والتذوق . . وتتضـافر عناصر الوحدة فى

(١) انظر النحل آيات ٥ — ١٨ .

(٢) الكشاف جـ٣ ص ٣٢٢ .

السماء والبر والأرض لإبراز هـذا المعنى، فتصبـح المفردات عنـاصر بنائيـة لإبراز هذا المشهـد الكونى الهائل، من حيـث تناسق النواميـس فى الكون كلـه، ولينتهى السيـاق الطويـل بتذكير الله للبشر بنعمـه التى لا تعـد ولا تحصى. ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم﴾[1]

والآيـات تستعـرض خلـق الله الذى سخـره لـلإنسـان، وبـدأت بالأنعام لما لها من أهمية فى حياة البشر، فلا حياة بدونها لبنى الانسان.

والقرآن وهو يعـرض هذه النعمة ينبه إلى مافيهـا من تلبية لضرورات البشر، وتلبيـة لحاسـة الجمال «فـالجمال عنصر أصيـل فى هـذه النظـرة، وليست النعمة هـى مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركـوب، بل تلبية الأشواق الزائدة على الضرورات. تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الإنسانى المرتفع على ميل الحيوان وحاجة الحيوان»[2].

وهذه النعم — بما فيها نعمة الأنعـام — مدعاة إلى التأمل والتفكير فى تـدبير الله، وفى نواميسـه المسخرة لحيـاة البشر، ودلالـة ذلك كلـه على الخالـق وعلى وحدانيتـه وهو المعنـى الدينـى العميق الـذى يكشف عنـه السياق كله.

● وعبرة أخـرى لـلأنعـام تشير إلى عجيـب صنـع الله. إذ وردت الكلمـة فى سياق آخـر من النعـم تضمنتـه الآيات ٦٦ — ٦٩ «النحـل» وهـذا السيـاق يـدعـو إلى تفهم العبرة فى النعمـة، وإلى تـأمـل قـدرة الله وتدبيره.

قال تعالى: ﴿**وإن لكم فى الأنعـام لعبرة، نسقيكم مما فى بطونـه من**

(١) سورة النحل الآية ١٨.

(٢) الظلال جـ ٤ ص ٢١٦١.

بين فرث ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾[1] .

والسياق الذى وردت فيه «الأنعام» سياق تحول واستخراج ، وعمليات امتصاص وتحويل واحتراق ، ثم إفراز سائل جديد يحمل سمات خاصة وطعما مميزاً .

فالجهاز الهضمى يقوم بهضم الغذاء وامتصاص الصالح منه ، وهذا الجزء الصالح منه يذهب إلى الدم فيختلط به ، والجزء الآخر يتحول الى روث وهو الفرث . والدم يغذى الغدد التى منها الغدد اللبنية (ضرع الحيوان) المنوط بها إفراز اللبن . . فقدرة الله بارزة فى شطر الطعام شطرين الدم والفرث وأخرج من بينهما اللبن خالصاً من كل شائبة ، ناصعاً طاهراً ، لم يؤثر فيه لون الدم أو قذارة الفرث[2] .

والآية بيان للعبرة فإن الله سبحانه يخلق اللبن «وسطا بين الفرث والدم يكتنفانه وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله ، لا يبغى أحدهما عليه بلون ، ولا طعم ، ولا رائحة . . . فسبحان الله ما أعظم قدرته وألطف حكمته لمن تفكر وتأمل»[3] .

ويمتد مشهد الأشربة فى السياق كله . . فالسَكَر «العصير» يستخرج من الثمار . فمن ثمرات النخيل والأعناب ، يتخذ الناس منه السَكَر والزرق الحسن ، يأكلون بعضه ويتخذون من بعضه سكراً .

وعسل النحل شراب جعله الله شفاء للناس ، يخرجه النحل خلاصة لما يتغذى به . فالعسل يختلف لونه باختلاف الأزهار التى

---

(١) سورة النحل الآية ٦٦ .
(٢) انظر معجزة القرآن — نعمت صدقى ص ٧٣١٧٢ .
(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٣٣٤ .

يـرتشف النحـل رحيقها . والعسـل هو الغـذاء الوحيـد المعقم طبيعيـا . وذلك بعد أن تطبخه النحلة فى مطبخها العجيب .

وعن عبد الله بن مسعود «العسل شفـاء من كل داء . والقرآن شفاء لما فى الصدور. فعليكم بالشفائين : القرآن والعسل» .

إننـا أمام وحـدة مـن النعم متنـاسقـة . . فالسيـاق يـرسم مشهـداً لاستخراج الأشربة ، اللبن ، السكر، العسل . .

ولقد أدت لفظـة الأنعام دورهـا فى هذا السيـاق التصويـرى حيث عـرض المشهد التصـويرى جـانبا مـن الأنعـام يلائم الأشربـة التى هـى عناصر هذا المشهد فى وحدته التصويرية الكلية . .

وتـوافقت جـزئيات الصـورة فأحـدثـت هذا التنـاسق الجميـل بين العناصر من حيث حـركة الفعل الباطنية المخالفـة للهيئة الخارجية ، فثمة سكـر وشراب يتخلص مـن ثمار تختلف فى الهيئـة والطبيعـة عن السكـر. والعسل يُستصفـى من الازهـار المخالفـة فى هيئتها وطبيعتهـا للعسل . . ومـن ثم كـان اللبـن المستخـرج من فـرث ودم ، وهما مخالفـان فى هيئتهما وطبيعتهما للبن .

«ألا انـه الابـداع هنا فى وحـدة الاجـزاء ودقـة التصـوير، وتنـاسـق الاخراج»[1] .

إنها كلها أشربـة تخرج من أجسـام مخالفة لها فى شكلهـا . . ولما كان الجو جو أشربة فقد عرض من الأنعام ما يلائم ذلك وهو اللبن .

● وردت الأنعـام فى سورة «المؤمنـون» كعنصر من عنـاصر الوحـدة

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص ١٢٢ .

الكليـة التى تنتظـم نعم الله وفضلـه . كخلق الانسـان وخلق السمـوات وإنـزال الماء وإنبات النخيـل والاعناب والـزيتون، ثـم نعمة الانعـام بما تتضمنـه من العبرة المستفـادة من إدراك اللبـن ومن المنفعـة التى تتحقـق منها .

قال تعالى : **﴿وإن لكم فى الأنعام لعبرة نُسقيكم ممـا فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون﴾**[1] .

لقـد جمعـت آية (المؤمنـون) بين المنفعـة والعبرة، ووردت فى سيـاق منظومة النعم فى تناسق بديع .

فـاللبـن السائغ هـو شراب للنـاس وغـذاءٌ لهم فضلا عـن المنفعـة المرتبطة بحياة البشر. ويـرى صاحب الكشاف أن فى الأنعـام منفعة زائدة (وهى الأكل الـذى هو انتفاع بذواتها، والقصد بـالأنعام إلى الإبل / لأنها هى المحمـول عليها فى العـادة وقَرَنَها بـالفلك . .)[2] فالسيـاق ربط بين الأنعام والفلك إذ هما مسخـران بنظام كونى خلقـه الله لخدمة البشر ومن ثم تتحقق العبرة لمن يتأمل قدرة الله وفضله فى الكون .

. . كما تتنوع الدلالـة لتتلاءم مع وحدة كلية ذات نسـق عام . فهى وإن دلت على تعـدد المنافع المرجوة مـن الأنعام إلا أن الجزئية تتناغـم مع غيرها من مكونات الوحدة وعناصرها البنائية .

فهى تأتى فى مجال الدلالة الدينيـة التى تتحدث عن طبائع الإنسان ومـوقفه مـن النعمـة، وجحوده لها، وهـى دلالـة متكررة فى مجال تـذكير الإنسان لنعم الله عليه وغفلته وجحوده عن هذه النعم .

---

(١) سورة المؤمنون آية ٢١ .

(٢) الكشاف جـ٣ ص ٤٥ .

قال تعالى: ﴿**يعرفون نعمة الله ثم يُنكرونها وأكثرهم الكافرون**﴾[1]. وتأتى «الأنعام» فى سياق بناء كامل يمثل السكن والإيواء والحماية.. وتنوعت مفردات الوحدة لتقيم هذا البناء فى تناسق فريد، كل جزئية تتلاصق وتتنامى... حتى تصنع هذا البناء الشامخ وهو يلقى بظلال الأمان والسكنية..

قال تعالى: ﴿**والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً الى حين. والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون**﴾[2].

والمشهد الذى تصوره الآيات يتناول البيوت والأمتعة ومخابىء الجبال والسرابيل، والجلود المأخوذة من الانعام وكذلك ظلال الاشياء.

والحديث عن البيت حديث خاص، إنه البيت الذى يشى بالسكن والطمأنينة، ويمس مشاعر الانسان من حيث.. السكينة النفسية — والطمأنينة القلبية. ولأن المشهد وحدة كلية واحدة، تتمثل عناصرها فى البيوت والأكنان والسرابيل.. «فإن السياق يعرض من الانعام جانبها الذى يتناسق مع مفردات المشهد)[3].

إن فى البيت لسكنا، وفى الظلال راحة للنفس من وقدة الحر، وفى الأكنان والكهوف أمان وحماية، وفى السرابيل وقاية للجسد من الحر

---

(١) سورة النحل الآية ٨٣.
(٢) سورة النحل الآيات ٨١ — ٨٢.
(٣) الظلال جـ ٤ ص ٢١٨٧.

والحرب معاً . . وهى كلها مفردات تشى بالأمان النفسى والراحة القلبية . .

ومن ثم كان من طبيعة بناء الوحدة الكلية أن تتلاءم الأنعام مع هذا المشهد التصويرى، فأخذ السياق منها مايفيد ذلك . . فمن جلود الأنعام وصوفها ووبرها وشعرها تصنع الخيام، والقباب والبيوت . . تضفى الحماية والطمأنينة وهى أيضا سهلة الحمل فى التنقل والإقامة . . كما أن الناس يلبسون من الصوف والوبر والشعر الملابس والسرابيل كما يتخذون منها الأمتعة يفرشون بها مساكنهم، وكذلك الأثاث الذى يريحهم ويمتعهم .

وكل هذه المفردات مما يلاذ به أو يحتمى، أو يستظل، أو يستتر، فالمنظر كله أبنية وأردية وظلال .

● ووردت كلمة «الإبل» فى سورة الغاشية فى إطار عام عن الوحدانية والقدرة ودعت الآية إلى النظر إلى الإبل نظر اعتبار، إذ خلقت خلقا عجبا دالاًّ على تقدير الله وتدبيره، إذ جعلها تفى بحاجة الإنسان فى كل حالة . (وعن سعيد بن جبير قال : لقيت شريحاً القاضى فقلت : أين تريد؟ قال : أريدُ الكناسة . قلت : وما تصنع بها؟ قال : أنظر إلى الإبل كيف خلقت؟

ولقد تناولت الآية الأدلة على وحدانية الله وقدرته، متمثلة فى خلق الإبل وخلق السماء، والجبال، والأرض . . وكلها شواهد ملموسة على جلال سلطانه وعظيم قدرته، وجميل تدبيره .

قال تعالى : **﴿أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نُصبت . وإلى الأرض كيف**

سُطحت﴾[1].

لقد طالبت الآيات البشر أن ينظروا إلى بديع خلقه. إلى الإبل وكيف خلقها الله على هذه الصورة البديعة؟ وذلك لإدراك عظمة الخالق والنعمة التى أنعم بها على خلقه، وإلى السماء وكيف رفع الله بناءها بلا عمد، وإلى الجبال الشاهقة ويكف نصبت راسخة لا تتزلزل، وإلى الأرض وكيف بسطها الله ومهدها..

قال ابن كثير (نبه تعالى البدوى على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذى هو راكب عليه، والسماء التى فوق رأسه، والجبل الذى تجاهه. والأرض التى تحته.. على قدرة خالق ذلك وصانعه وأنه الرب العظيم)[2]. إن الحكمة فى تخصيص هذه الأشياء بالذكر أنها مما تقع عليه عين المشاهدة.

.. ترى ما الوحدة التى تجمع بين جزئيات الخلق هذه.؟ ما الإطار المشهدى التصويرى الذى يحتضن فى داخله مفردات عناصر هذا البناء البديع؟

فهذه الجزئيات وإن كانت تجمع أطراف بيئة البدوى إلا أنها تضم أطراف الخلائق البارزة فى الكون.

والإبل هنا — وهى نوع من الأنعام — تتضمن صفة خاصة بخلقها وتكوينها وقيمة عامة فى حياة البدوى. فالإبل حيوان العربى الأول عليها يسافر ويحمل أثقالاً ومنها يأكل ويشرب ويرتوى غذاءً كامل الفائدة، ومن أوبارها وجلودها يلبس ويرتدى سرابيل تقيه الحر والبرد

---

(١) سورة الغاشية آيات ١٧ — ٢٠.

(٢) صفوة التفاسير جـ ٢ ص ٥٥٣.

ويبتنى البيوت السهلة الحمل، وهى على ضخامة تكوينها وقوة أجسامها ذلول سهلة الانقياد، ترعى فى يسر، وتصبر على الجوع والعطش طويلا . . ومن ثم وجب توجيه النظر إلى تدبر خلق الإبل على هذا النحو المناسب لوظيفتها المتناسقة مع بيئتها . .

. . كما أنها تتنامى مع وحدة المشهد التصويرى ككل . ذلك المشهد الذى يلاحظ فيه هذا التكوين البديع الموحى بالضخامة، والذى يلقى فى حس الإنسان ووجدانه الشعورى الدهشة والتعجب وتعميق النظرة المتأملة والوحدة المشهدية المصورة توحى بالتوافق الموجود بين عناصرها، وكذلك العلاقة التى تؤكد على أنها لم تأت عبر صدفة ما، بل حسب تدبير عظيم وسلطان جليل . . إنها توحى بعظمة الله وقدرته . ومن ثم برز الانسجام واضحاً فى عناصر الوحدة حين جمعت بين هذه الأشكال المرئية . وتوفر الوحدة هنا يتيح للمتأمل أن يرى هذا المشهد رؤية كلية ثم تتدرج الرؤية نحو الجزء .

فثمة توازى فى الاتجاهات . . فهاهى السماء المرفوعة بما تشى به من امتداد لا نهائى، وبما تتزين به من أجرام هائلة . . وتلك الأرض المديدة الواسعة، العريضة، المبسوطة . . وهذه الجبال المركوزة على سطح الارض وأعماقها، وتلك الإبل الضخمة البارزة السنام، العالية الرأس، الطويلة الاعناق . . فالمشهد ككل يتحد فى الشكل كما يتناسق فى الحجم .

(والملحوظ هنا هو الضخامة وما تلقيه فى الحس من استهوال، والاجزاء موزعة بين الاتجاه الأفقى فى السماء المرفوعة، والأرض المبسوطة، والاتجاه الرأسى بينهما فى الجبال المنصوبة والإبل الصاعدة السنام . وهذه

دقة أوجدتها يد المصور المبدع فى الأشكال والأحجام)[1] .

لقد برز فى إطار هـذه الوحدة المتكاملة الحيوان المنـاسب فى التكوين والسياق العام . . إنه الجمل أليـف الصحراء الفسيحة التى تحدها السماء والجبال فى مشهد جليل .

● كما وردت «الأنعام» فى مجال النعمة أيضا وفى جانب محدد ، وهو الاستواء . . وذلك فى مقارنة بينهـا وبين الفلك فى البحار. فكما سخر الله للبشر السفن فى البحر، سخر لهم أيضا الإبـل فى البر وسيلة للسفر والتنقل قال تعالى : ﴿**والذى خلق الازواج كلهـا وجعل لكم من الفلـك والأنعام ما تركبون * لتستـووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكـم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كُنَّا له مُقرنين**﴾[2] .

(وليس المراد من ذكر النعمة تصورهـا و إخطارها فى البال ، بل المراد تذكـر أنها نعمة حاصلـة بتدبير القادر العليم الحكيـم ، مستدعية لطـاعته وشكره ، فإن مَنْ تفكر فى أن مايركبـه الانسان من الفلك والأنعام أكثر قوة وأكبر جثة من راكبـه ، ومع ذلك كان مسخـرا لراكبه يتمكن مـن تصريفه إلى أى جـانـب شاء ، وتفكـر أيضـا فى خلـق البحـر والريـح وفى كـونهما مسخرين لـلإنسان مع ما فيهما مـن المهابة والأهوال ، استغـرق فى معرفة عظمـة الله تعـالى وكبريـائه وكمال قـدرتـه وحكمتـه ، فيحملـه ذلـك الاستغراق على أن يقول متعجبـا من عظمة الله ﴿**سبحان الذى سخـر لنا هذا وما كنا له مقرنين**﴾)[3] .

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص ١٢٣ .

(٢) سورة الزخرف الآية ١٢ ، ١٣ .

(٣) صفوة التفاسير جـ ٣ ص ١٥٢ .

ولقد برز الاستواء كوحدة تصويرية شملت السياق العام، فثمة استواء على ظهر السفينة، حيث الاستقرار والتمكن والطمأنينة وسكينة القلب والجسد معاً. وكذلك الاستواء على ظهر الأنعام (الإبل) كمظهر للتمكن والسيطرة والاستحواذ والمتعة من جراء التنقل والتنوع والتغير. وهذه الوسائل ذللها الله وسخرها ويسرها للبشر، ومن ثم وردت هذه الصورة الكلية لتجمع بين استوائين فى البحر المتلاطم، والصحراء المترامية وتأخذ من معناهما معاً، الراحة، والسكينة، وتذكر أيضا بنعم الله.. فأضافت الصورة بذلك ملمحاً جديداً للصورة الكلية للأنعام فى مجال التذكير بالنعمة.

ولعلنا نستطيع أن ندرك جانبى الصورة فى البحر والبر. وملاءمة الزوجية هنا (الفلك — الأنعام) الثنائية الصورة، بحيث تختلف فى الشكل والمجال وتتفق فى جوهر الهدف. وتفيض الدلالة عندما نتصور المجال فى الجانب الأول بما يكتنفه من غموض وهول وتقلب وموج متلاطم، وخوف يصاحب كل حركة عنيفة، أو ريح عاصفة.

وتصبح السفينة أيضا.. وفى الجانب الثانى تترامى الصحراء برمالها المتحركة والمتموجة والمتقلبة كالبحر تماماً، فضلا عن الرياح العاتية والحرارة العالية وتضاريس المكان بين العلو الشاهق كقمة الموجة وبين السفوح المستوية والأخاديد العميقة كانحسار الموجة وحركة الدوامات المائية.. هذه الصحراء يصاحبها الخوف والمخاطر والمهالك مما يجعل الإبل ملاذا من نهاية مؤلمة.

ولعل هذا التصور الفرعى للدلالة كفيل بأن يجعل القلب البشرى يفيض بمشاعر حساسة مرتبطة بالخضوع لله، لا تغفل رضاه ونعمته

ولاتنسى رحمته .

● وتـرد كلمة «الأنعـام» كمفـردة تصويـريـة فى إطـار من الصـورة الكلية التـى تتناول شهـوة التّملك . . وهـى شهوات فطـرية مـن ينساق إليها يسقط ويتدنى .

قـال تعـالى : ﴿**زُيـن للنـاس حـبُّ الشهـوات مـن النسـاء والبنين والقناطير المقنطـرة من الـذهب والفضة والخيـل المسوَّمـة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حُسن المآب**﴾[1] .

والآية الكـريمة توضـح سقوط الناس حين يغترون بشهـوات الحياة الـدنيـا ، تلـك الشهوات التـى تحددت بمفـردات منهـا : — النسـاء بما يحملـن مـن فتنـة ولـذة ، والبنين لكونهم قـرة العين وطـريقـا للتـواصـل والامتداد ، والـذهب والفضـة (المال) لأنه وسيلـة هامـة لتحقيق الـرغبة وإنفاذ الشهوة ، والخيل لما تتضمنه مـن أصالة ، وحُسْن ، وبهاء ، ومتعة ، والأنعام من إبل وبقـر وغنم لكون الفائدة تتعدد من ركـوب وطعام وزينة ثم الحرث الذى هو القوت والطعام .

والله سبحانه وتعالى (جعل الأعيان التـى ذكرها شهوات ، مبالغة فى كونها مشتهـاة ، محروصاً على الاستمتاع بها ، والـوجه أن يقصـد تخسيسها فيسميهـا شهـوات ، لأن الشهـوة مسترذلـة عنـد الحكماء ، مـذمـوم مـن اتبعها ، شاهد على نفسه بالبهيمية)[2] .

والاستغراق فى شهـوات الدنيـا يشغل القلـب عن التبصر والاعتبـار ويدفع إلى الغـرق فى لجة اللذة الحسية ، وهذه الرغبات فطـرية تؤدى دوراً

(١) سورة آل عمران الآية ١٤ .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ١٧٨ .

فى حفظ الحياة وامتدادها، ولكن يجب ضبطها وتنظيمها، بحيث يصبح الإنسان مالكاً لها ومسيطراً عليها.

ففى آيـة واحدة «يجمـع السياق القـرآنى أحـب شهوات الأرض إلى الإنسان وهـى خلاصة للـرغائب الأرضيـة إما بذاتها وإمـا بها تستطيع أن توفره لأصحابها من لذائذ أخرى»[1].

ولعـل الصياغـة تشيرإلى هـذه الفطريـة فى الـذات البشرية، فبنـاء الفعل للمجهول يـوحى بأن التركيب الفطرى فى الإنسان خلـق وفيه هذا الميل إلى الشهوات.

والإسلام يـراعى الفطرة، ويقبـل واقعها ودوافعهـا ولكنه يحاول أن يهذب ويـرفـع ويتسامـى بحيـث لا تطغـى اللذة الحسيـة على «أشـواق الروح» وتطلعها إلى الله.

وتنوع المفـردات فى المشهد يصنـع وحدة فى الصـورة العامـة، وتقوم كل مفـردة بتلويـن مساحة مـن المشهد، بحيث يتنـوع الشكل ومـن ثم يتضمن إحسـاسات مختلفـة تتجاوز وتتمازج، وتتحـاور فتعطى للمشهـد كليتـه. ومعناه العميـق. ويتفـرع عن المفـردة مفـردة أخـرى مرتبطـة بها ومتلاصقة، فالنساء والبنين يكونان وحـدة فى المساحة، وكذلك الذهب والفضة، والأنعـام والحرث، ثم الخيل والمعنـى العميق المستخلـص من المشهد يؤكد على أن كل هذه المفـردات — النعـم — زائلة وفانية ولا يبقى إلا الجزاء على شكر النعمـة والعمل بحقها. ومن ثـم جاءت الآية التـالية لتبين ما هو أفضل من نعم الدنيا ومتاعها الفانى.

---

(١) الظلال جـ ١ ص ٣٧٣.

قال تعالى: ﴿. . . **للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد**﴾[1].

● ثم نأتى الى الدلالة الحقيقية المتضمنة فى كلمة «الأنعام» من حيث كونها إشارة إلى الحيوانية ورمزاً عليها. تلك الحيوانية التى تحكمها الغرائز وتتدنى فى مجال الخلق والتكوين. ومن ثم يتصاحب المعنى فى مجال الحديث عن الكفرة الذين غرقوا فى متاع الدنيا ونسوا عقولهم وغفلوا عن إنسانيتهم فجحدوا بنعم الله. قال تعالى: ﴿**إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم**﴾[2].

والآية الكريمة تشير إلى ان الله يعطى المؤمنين من عباده نصيبا وافراً من نعمه فى الآخرة حيث تكون الجنة من نصيبهم، وهو نصيب يتناسق مع الإيمان ومع الصلاح، فالتكامل فى الفعل ونتيجته تكامل ازدهى وتألق برضى الله الذى تمثل فى الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار.

أما الكفار فهم يأكلون كما تأكل الأنعام، ويكون جزاؤهم النار مثوى ومقاما « . . إنهم ينتفعون بمتاع الدنيا أياماً قلائل، يأكلون غافلين، غير مفكرين فى العاقبة، كما تأكل الانعام فى مسارحها غافلة عما هى بصدده من النحر والذبح . . والنار منزل ومقام لهم فى الآخرة»[3].

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥.
(٢) سورة محمد الآية ١٢.
(٣) الكشاف جـ٣ ص ٤٥٥.

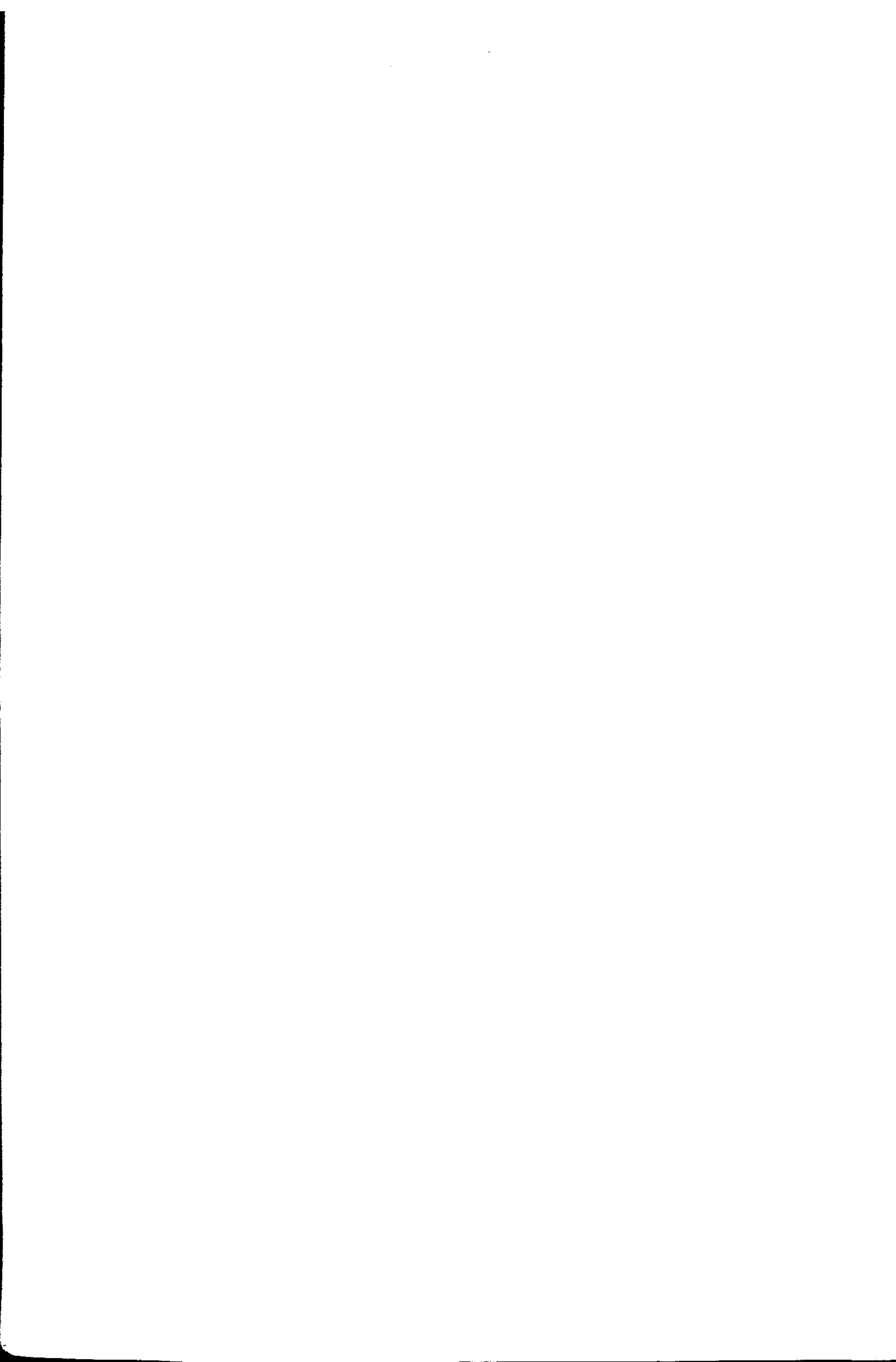
وطرف الموازنـة قد ردت فيه كلمة الأنعـام فى إطار تصويرى مغـاير للاطر التصـويرية التى وردت فيهـا الكلمة سابقا . وأعطـت الكلمة عبر السياق الدلالة الحقيقية للأنعام ، وهى الدلالة الحيوانية البحته .

فالكـافرون يتمتعون بمتـاع الدنيا أكلاً وشربـاً فى شراهة خاليـة من التذوق والتعفف . إنهم يلتهمون المتعة ، ويقارفون الشهوة فى نهم حيوانى خالٍ من الحس الإنسـانى والجمال التسلوكى ، ومفتقد للشعـور الأخلاقى القائم على التقوى ، والنظافة فى الفعل .

والصورة التشبيهيـة أعطت للوحدة وإطـارها العام ووشـت بمعنى عميق يتناول الإنسان فى جـانبه الحيوانى . . حيث (شبه الكفـار بالانعام فى التمتع بالأكـل ، فهم يأكلون عـن شره ونهم كسائر البهائم ازدراءً لهم ، وتحقيراً لحالهم ، ووصفهم بالدناءة والبطنة مما تذمه العرب وتبغضه)[1] .

إن الحيوانية التى يرمز إليها بكلمة الأنعام ، تتحقق فى المتع الدنيوية التـى تسيطر عليهـا ضغوط الشهـوة ، ومثيرات اللذة ودواعيهـا ومن ثـم تصبح الصـورة تصويـراً مزريـا للإنسـان حين ينحط إلى درجـة الأنعام . ذلك أن الفارق الـرئيسى بين الإنسان والحيوان «ان للانسـان إرادة وهدفاً وتصـوراً خاصـاً للحيـاة على أصولها الصحيحـة المتلقـاة مـن الله خالـق الحياة . فإذا فقد هذا كله فقـد أهم خصائص الإنسان المميزة لجنسه» . . ولقـد أوضحـت «الأنعـام» الـرمز الكلى للحيـوانيـة مـن حيـث الجنـس والدلالة .

(١) القرآن والصورة البيانية د . عبد القادر حسين ص ١٤٩ .



الفصل الثالث :

- الأداء التصويرى.
- وإيقاع الفواصل.

إن التناسق فى النص القرآنى الكريم، يبلغ الدرجة العليا فى إحداث جماليات التصوير الفنى . والإيقاع الموسيقى أحد ملامح هذا التناسق وهو ناتج عن ملاءمة اللفظ مع النسق الخاص الذى ورد فيه، كما أنه يتنوع بتنوع الفواصل، القصير منها والطويل، المتماثل منها والمتخلف .

والإيقاع فى النص القرآنى الكريم قد تحرر من كل قيد يقيد المعنى، أو يحد من النظام الصوتى، مما أدى الى حرية التعبير وامتلاك آفاق رحبة من التآلف والتلازم والانسجام .

إنه إيقاع لغوى متفرد، لا يماثله إيقاع أو يقترب منه، إنه ايقاع جماعى — إن صح التعبير — يقوم فيه الحرف الصوتى بدوره، والكلمة فى نسقها بدورها، والجملة فى سياق التركيب بدورها، والآية من خلال السورة والموقف بدورها . . والفاصلة من خلال التردد الصوتى والتكرار الإيقاعى بدورها . . إنه إيقاع منبعث من النص فى تكوينه الصوتى واللفظى، يبرزه كل مكونات النص القرآنى .

فهذا الإيقاع «ينبعث من تآلف الحروف فى الكلمات، وتناسق الكلمات فى الجمل، ومرده إلى الحس الداخلى، والإدراك الموسيقى، الذى يفرق بين إيقاع موسيقى متناسق و إيقاع مضطرب»[1] .

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن سيد قطب ص ١٠٤ .

والفاصلة القرآنية ليست قيداً صوتيا، أو معنويا . . كما نلمح ذلك فى الشعر والنثر. فكثيراً ما وجدنا التكلف واضحاً فى الشعر لحرص الشاعر على القافية وتكلفه فى إيرادها ولو كان ذلك على حساب المعنى وجمال التركيب. ويبدو ذلك أكثر وضوحاً لدى الكتاب الذين يغرمون بالمحسنات اللفظية التى تصرفهم عن جمال المعنى وتبعدهم عن التناسق فى التركيب . .

«والفاصلة القرآنية عنصر أساسى من عناصر اللغة الإيقاعية، والقرآن الكريم يمتاز بحسن الإيقاع، فتأتى الفاصلة فى ختام الآيات حاملة تمام المعنى وتمام التوافق الصوتى فى آن واحد»[١] .

* والفاصلة فى القرآن هى ما تنتهى به الآية القرآنية. وهى جزء من الآية، وعنصر تعبيرى متميز، ومثير قوى للإيقاع. وهى — كملمح أساسى من ملامح الإيقاع الموسيقى، والنظم الصوتى فى القرآن — تنضوى على دلالتين هامتين. الدلالة الاولى: وهى دلالة صوتية تتمثل فى الإيقاع والرنين الصوتى، المحكوم بنسق الآية والسياق العام.

والدلالة الثانية: دلالة معنوية تحمل تمام الفكرة فى الآية.

وإننا لندرك تلك الدلالة من خلال الآية التالية والتى وردت فيها الفاصلة متلائمة تماماً مع المعنى المراد . . إن المعنى الكامن فى الفواصل بعد أساسى من أبعادها وغرض واضح من إيرادها المتكرر.

قال تعالى: **﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾** .

---

(١) مكانة الفواصل من الاعجاز — الدارة ربيع الآخر ١٤١٠هـ.

السياق يوحى بالغفران . ولم تنته الآية بما يلائم الدلالة الظاهرة وذلك كأن تكون الفاصلة «الغفور الرحيم» . ولكنها جاءت كما وردت فى الآية بياناً أن من يستحق العذاب ، فلا يغفر له إلا من كانت سلطته فوق السلطات وعزته فوق كل عزة ، ومن كان كذلك وجب أن يكون متصفا بالحكمة . وليس كل عزيز عادلاً ، فمن الحكام من عزوا وفقدوا الحكمة . ومن ثم جاء ربط الحكمة بالعزة تعبيراً مصورا رائعا ، وبيانا قاطعا ذلك أنه (ما انتهت آية قرآنية إلا بفاصلة ملائمة كل الملاءمة لمعناها ، مستقرة فى قرارها ، مطمئنة فى مكانها ، غير نافرة ولا قلقة»[1] . إن ارتباط الفاصلة بالسياق أمر أساسى إذ يرتبط بالفكرة والهدف . . فهى لم تأت كحلية لفظية لا ارتباط لها بالمعنى أو اعتبار له .

قال تعالى : **﴿إذ الاغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون * فى الحميم ثم فى النار يسجرون * ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون * من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكافرين﴾**[2]

هذا لون من العذاب الذى يحيق بالكافرين يوم القيامة . فأيديهم تربط بالأغلال . والأغلال هى القيود التى تجمع فى ربطها بين اليد والعنق . وتتدلى من هذه القيود السلاسل حيث يسحبون منها إلى ماءٍ حارٍ ثم يحرقون فى النار .

قال ابن كثير «إن السلاسل متصلة بالأغلال وهى بأيدى الزبانية يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم» . ويقال لهم

---

(١) التعبير الفنى فى القرآن بكرى شيخ أمين ص ٢٠٢ .

(٢) سورة غافرة الآية ٧١ — ٧٤ .

تبكيتا أين الأصنام التى عبدتموها من دون الله . فيجيبون أنها غابت عن العيون . وأنهم ماعبدوا شيئاً . لقد وقع العذاب لضلالهم .

والمشهد من مشاهد يوم القيامة فى التهديد المخيف . كما أن التشبيه وارد فى النص حيث يسحبون كما تسحب الأنعام .

والفاصلة «يسحبون» من حيث المعنى مرتبطة بالسلاسل ومتصلة بقوله «فى الحميم» و«يسجرون» أفادت التوكيد بالعذاب فى جهنم المحرقة ، لأنه لو وقفت الآية عند قوله تعالى (ثم فى النار . .) لبقى المعنى محتاجاً إلى ثبات واستمرار وحبس وقرار . . فجاءت الفاصلة لتوضح هذا المعنى . كما أن فاصلة (تشركون) متصلة بقوله «من دون الله» لبيان الضلال عن الحق والابتعاد عن التوحيد . ومن ثم وجب الوقف على الفاصلة برغم الاتصال . .

ونلاحظ أيضا الإيقاع الممتد والمستمر الملحوظ فى حرف المد فى استمراره وطوله ثم استقراره وتمكينه فى حرف النون .

والفاصلة القرآنية لها مكانها عبر السياق الذى تستقر فيه بلا نفور أو قلق بل تتلاءم وترتبط به ارتباطا قويا بحيث لو طُرحت لاختل المعنى واضطرب الفهم قال تعالى : **﴿وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً﴾**[1] .

تتناول الآية موقف الأحزاب وقد خرجوا لغزو المدينة ، حيث ردهم الله على أعقابهم خاسرين ولم يشف صدورهم بما تمنوا تحقيقه بل اكتسبوا الإثم والعذاب والاندحار . . ولقد كفى الله المؤمنين شر أعدائهم بإرسال

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢٥ .

الريح حتى ولوا الادبار منهـزمين، وكان الله قادراً على الانتقام من أعدائه عزيزاً غالبا لا يقهر(١).

وجـاءت الفاصلـة فى قولـه ﴿قويـا عزيـزاً﴾ لتحدث هـذا المعنى المطلوب خـاصة وان حرف الروى اختلـف (الزاى) واتفقت الفـاصلة فى التنـوين . . على الحرف الاخير المتنـوع . . وهـذا التنويـن لـون من ألـوان الإيقاع المؤثر فى النفس، والحامل قدراً كثيراً من الرنين الصوتى.

ولـو انتهت الآيـة — كما يـرى الـزركشى — عنـد قـولـه عز وجـل ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾ لتوهم بعض الضعفاء أن ذلك يعنى موافقة الكفار فى اعتقـادهم أن الريـح التى حدثت كـانت سبب رجـوعهم، ولم يبلغـوا ما أرادوا، وأن ذلـك أمـر اتفاقـى، فـأخبر الله سبحـانه وتعـالى فى فـاصلة الآيـة عن نفسـه بالقـوة والعزة، ليعلـم المؤمنين ويزيـدهم يقينـا وإيمانـا على أنه الغـالب الممتنـع وأن حزبـه كـذلك — فقـال عز وجـل ﴿وكان الله قوياً عزيزاً﴾.

كما أن هذه الفاصلة بينـت أن تلك الريح التى هبت ليسـت اتفاقاً بـل هى مـن إرسـالـه عز وجـل على أعـدائه كعـادته، وأنـه ينـوع النصر للمؤمنين ليزيدهم إيمانا بنصرهم(٢).

لقد أثبت النص القرآنى هذه الحقيقـة إذ أسند إلى الله كل ما تم من الأحـداث والعواقـب، وجاءت الفـاصلة القـرآنيـة لتقريـر هذه الحقيقـة وتثبيتها فى القلوب.

والمتـذوق للغة، وصـاحب الحس المرهـف يـدرك مكانـة الفاصلـة

---

(١) انظر صفوة التفاسير جـ ٢.

(٢) مجلة الدارة وانظر البرهان فى علوم القرآن للزركشى.

وموقعها وما تتركب من حيث دلالة المعنى ودلالة الايقاع معاً .

روى أن أعرابيا سمع قارئا يقرأ قوله تعالى **﴿فإن زللتم من بعد ماجاءتكم البينات فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾** . فقال الاعرابى بحسه اللغوى الصافى : إن الحكيم لا يذكر الغفران بعد الزلل لأنه إغراء عليه . وكأنه يريد أن يوحى ويؤكد على أن العبارة لاتتناسق مع المعنى المراد من الآية . وهذا يعنى أن الفاصلة فى هذا الموضع «رحيم» لاتتلاءم مع المعنى أو مع السياق . لان تتابع السياق تحددها الالفاظ — «زلل — بينات — اعلموا» . . وهذا التتابع يضع سلسلة من الأفعال والبينات الداعية إلى أن الحق يعنى الالتزام بأمور الدين . والخروج عن التعاليم الإلهية خروج عن الأمر الإلهى بالاعلام والتبيين . . ومن ثم فإن الحكم الطبيعى للخارج عن النظام ليس الغفران و إنما الشدة وفرض العقاب . .

ونعود إلى قصة الأعرابى الذى لفت نظر القارىء إلى أن المعنى لا يستقيم . . لنعلم أن القارىء راجع قراءته فعلم خطأه وصحح الآية الكريمة . . حيث أكملها بقوله . . **﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾** .

ومعنى ذلك أن الفاصلة تلتحم بالآية التحاماً تاماً ، فتذكر بأن الله عزيز لديه القوة والقدرة وأن القوة ستطولهم وتنال منهم إن خالفوا التوجيه ، وتوضح أنه حكيم فتوحى بأن ما اختاره الله للبشر هو الخير وأنهم خاسرون إن لم يتبعوا طريق الخير . كما أن الفاصلة تؤكد معنى التهديد والتحذير . .

وفى هذا الصدد يرى «الرمانى»(★) أن الفواصل تابعة للمعانى ، وأما الأسجاع فالمعانى تابعة لها . «وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة ،

(★) على بن عيسى الرمانى مؤلف كتاب : النكت فى إعجاز القرآن .

لانها طـريق لإفهـام المعانـى التى يُحتـاج إليها فى أحسـن صورة يـدل بها عليها» .

والبلاغة مـن حيث هى من القول لا تفصل بين جـوهر المعنى وبين أسلوب أدائه من حيث التآلف والرهـافة والإيقاع «وهذا هو الحد الفاصل بين فنية البـلاغة كما تجلـوها الفواصـل القرآنية بـدلالاتها المعنويـة المرهفة ونسقها الفـريد فى إيقاعهـا الباهر، وبين مـا تقدمـه الصفة البديعيـة من زخرف لفظى يكره الكلمات على أن تجىء فى غير مواضعها البيانية»[1] .

. . والإيقـاع والتلاؤم مـع الموضـوع ملمـح جمالى فى أداء الفاصلـة لـوظيفتهـا . إن نظـم القـرآن ونغمـه ينبعـث مـن الحروف والكلمات والأسلوب ، فحـروفه متـآخية فى كلمات ذات إيقاع مـوسيقى ونغـم تهتز المشاعـر منها اهتزازاً وتسكن النفـوس مطمئنة راضية ، ويختلج الـوجدان متأثـراً ومنفعلا ويطرب القلـب حين يدرك المعنى مصحوبـا بإيقاع مـؤثر يرهف الحس ويرقق الوجدان .

والتلاؤم ملمح جمالى فى القرآن . . يرتبط بـالإيقاع ارتباطا وثيقا ومن ثـم يتحـدد الأداء التعبيرى بـدورهما عبر السياق القـرآنـى . . فـالإيقـاع الهادىء ، له مـوضعه الملائم لـه ، والإيقاع الهادر الصـاخب لـه موضعـه الملائم له ، والإيقاع الساكـن الرقيق له موضعه أيضـا . . ويتبدى التلاؤم فى أن «الآية تتضـافر ألفاظها فى نغـم هادىء إن كانـت الآية فى تبشير، أو داعيـة إلى التأمـل والتفكير إن كانـت فى عظة ، وتتـلاءم نغماتها قويـة إذا كانت فى إنذار أو وصف عذاب»[2] .

---

(١) الاعجاز البيانى للقرآن د. بنت الشاطىء ص ٢٥٨ .

(٢) القرآن المعجزة الكبرى محمد أبو زهرة ص ٢٨٧ .

. . فى آيات الضحى نلمح هذا الهدوء وتلك السكينة ، البادية فى نغمات الرحمة الواسعة ، والمنبعثة من التلاؤم والتآلف وإيقاع الفواصل :

قال تعالى : ﴿**والضحى * والليل إذا سجى * ما ودّعك ربك وماقلى * وللآخرة خيرلك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى**﴾[1] .

وسورة الضحى خاصة بالنبى ﷺ وفيها تسلية وإيناس وتطمين . وتنبثق منها نسائم الرحمة ، ويشع من الإيقاع الهادىء الناعم لمسات الحنان والرحمة الإلهية . وجاء القسم بالضحى الرائق الصافى كما جاء بالليل فى رقته وسكونه وصفوه بما يشعر بالتواصل بين الكون والذات فتنتفى الوحشة ويتأكد الأنس والمؤانسة . وتؤكد الآيات على رعاية الله لمحمد ﷺ وادخاره الخيرله وغلبته على أعدائه .

إن الفواصل فى الآيات فيها تمهل واستقرار، ويغلب عليها التساوى فى الوزن والتوازن فى الإيقاع . والملاحظ على الفواصل أن كاف الخطاب قد حذفت إذ من مراعاة السياق تواصل الخطاب ، فقوله تعالى ﴿**ماودعك**﴾ خطاب موجه إلى الرسول ، ولم نلحظ الكاف فى «ماقلاك» مثلا . . وكذلك فى آوى وهدى وأغنى . . فى السورة ككل .

وجاء حذف الكاف لدلالتين متمازجتين كل التمازج . . وكان الحذف متلائماً مع المعنى المراد .

فالدلالة الأولى : دلالة صوتية تحفل بالرنين الهادىء الآخذ بالنفس ، وهذا ناتج عن رعاية الفواصل فى إيقاعها المتواصل ، بحيث

---

(١) سورة الضحى الآيات ١ — ٥ .

يتوالى حرف المد بفيضه الشعورى وتعاليه النفسى .

والدلالة الثانية : دلالة معنوية نفسية تتنامى مع السياق الذى «تقتضيه حساسية مرهفة بالغة الدقة واللطف ، هى تحاشى خطابه تعالى رسوله المصطفى فى موقف الايناس بصريح القول : وماقلاك . لما فى القلى من حس الطرد والإبعاد وشدة البغض . أما التوديع فلا شىء فيه من ذلك ، بل لعل الحس اللغوى فيه يؤذن بأنه لا يكون وداع إلا بين الأحباب»[1] .

. . . وكذلك الهدوء الباعث على التأمل فى الكون ، وهو نوع فكرى تأملى ، ينبثق منه إيقاع هادىء ونغم له رنينه الساكن ، وذلك من أجل لفت الذهن ، و إثارة مدارك الفكر ، وتوجيه العقل نحو مشاهد الكون لإدراك العظمة الإلهية وراءه ، وتأكيد الوحدانية واحتواء الوجدان بفيض من المشاعر الروحية .

قال تعالى : ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت**﴾[2]

تدعو الآيات الكريمة البشر إلى أن ينظروا إلى بديع خلقه ، وتأخذ الآيات بعقل الانسان ليتأمل هذه النعم الباهرة التى حددتها الآيات . وهى السماء والأرض والجبال والجمال . ومع ما فى هذه الموجودات من صفة مادية مشتركة وهى البروز والضخامة . كما أنها أشياء داخله فى مجال إدراكه البصرى والعقلى . والتوجيه يدعو إلى تأمل الإبل كيف خلقها الله

---

(١) الاعجاز البيانى للقرآن ص ٢٥٠ .

(٢) سورة الغاشية الآيات ١٧ — ٢٠ .

على هذا النحو الذى يـلائم الوظيفة والمكان من حيث التنـاسب والحركة والتنـاسق العـام . . كما يدعـو التـوجيه إلى التفكـر فى السماء بما فيها مـن منـافـع وجمال ، تتصـل بـالنهـار الواضـح ، والليـل السـاجـى والنجـوم المتـلألئة ، فضـلا عن تنظيـم حركـة الحيـاة وفقا لحركـة السماء . ويدعـو التـوجيه إلى إنعـام النظر والفكـر فى الجبال الشـامخات فهى الملاذ ، وهـى الصاحب ، وهـى المشهد الموحى بالجلال والعظمة . وكذلـك الدعوة إلى تأمل الارض وقد مهدها الله للحياة والعمل . .

ولاشك أن الإيقـاع الناتج عـن الفواصـل المتحدة فى الحرف الأخير وهـو التاء فى ألفـاظ (خلقـت ، رفعت ، نصبـت ، سطحـت) ساعـد فى إجاشـة القلب وتحريـك الوجـدان ، وساهـم فى تكويـن الحركة الجماليـة المشتركة أمـام جمال التناسـق التصويـرى لمفردات الكـون . كما أن حركـة الفاصلـة حركـة بناء للمجهـول ، تستدعـى كوامـن العقل لسبر أغـوارها والوقـوف على فاعلها ، وفك مجهـوليتها ، ليصل تلقائيـاً إلى أن وراء ذلك كله إله واحد لا شريك له . ولقد ساعد الإيقاع الداخلى الناتج عن تكرار اسم الاستفهام «كيف» الباعث على التسـاؤل عن الكيفية والحالية ، وهو استفهام إعجـازى لأن العقل البشرى لن يستطيـع أن يعلم كيفيـة الخلق ولكنه يدرك أن الله هو الخالق المتفرد بالوحدانية .

والفواصل متسـاوية فى الوزن تقريبا ، والآيات ذات إيقـاع موسيقى متحد تبعا لذلـك . . والإيقاع هادىء متزن ساكن يتـلاءم مع الدعوة إلى التأمل والتدبر .

. . . ويتناسق الإيقاع متلائماً مـع الموضوع من حيث القوة والجرس الصـوتـى المدوى «المنبثق مـن الألفـاظ بحـروفها ، والجمـل بتراكيبهـا ،

والخواتم بشدة جرسها وقرع الأسماع بها»[1]

ويصبح الإيقاع هادراً، صاخبا، قويا، له رنينه الحاد، وتساعد الفاصلة على نقل ذلك كله إلى الوجدان.

قال تعالى: ﴿**القارعة * ما القارعة * وما أدراك ما القارعة * يوم يكون الناس كالفراش المبثوث * وتكون الجبال كالعهن المنفوش**﴾[2].

إن المشهد هنا يتسم بالهول العنيف تحدده الكلمة الأولى «القارعة» التى تبدو من خلال السياق كقذيفة تلقى بجرسها الصوتى الرهبة والخوف فى النفوس. وتستمر الفاصلة فى إحداث هذا الرنين الصاخب الموحش عن طريق التكرار والتوازن، فى هذا الجو تتغاير المرئيات وتتبدل فيصبح الناس من الخفة والرعب معاً كالفراشات. وتتحول الجبال إلى رمال مسحوقة كالصوف المنفوش ولعل حرف الشين بهسيسه الصوتى يوحى بهذا الانسحاق والتفتت هذا التلاؤم بين الإيقاع والموضوع فيه تعبير يتراوح بين القصر والطول.. وكذلك تدرج المدّ الصوتى..

«فمن تناسق العرض أن تسمى القيامة بالقارعة، ليتسق الظل الذى يلقيه اللفظ والجرس الذى تشترك فيه حروفه كلها، مع منظر الناس كالفراش المبثوث والجبال كالعهن المنفوش»[3].

وطول المشهد أدى إلى إطالة التعبير ومن ثم فهو أشد إثارة للحس وترويعاً للنفس.

ونلمح هذا الهول والعنف والترويع فى الآيات والسور التى تناولت

---

(1) القرآن المعجزة الكبرى ص ٢٨٨.
(2) سورة القارعة الآيات ١ — ٥.
(3) مشاهد القيامة ص ٧٦.

يوم القيامة وكانت الفاصلة أهم أدوات التعبير الايقاعية لايصال هذا المعنى .

قال تعالى فى سورة عبس : ﴿**فإذا جاءت الصاخة * يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه***﴾[1] .

إنه هول يوم القيامة الذى يفر الانسان فيه من أحبابه لشدة الهول والفزع .

فالصاخة لفظ ذو رنين صوتى مدوّ، يخرق المسامع ، كمقذوف يخترق الأذن ، فيحدث هولاً نفسيا يفزع النفس ويستبد بها ، فتنشغل به عما عداه . . ومن ثم جاءت الفاصلة تحوى حرف المد مختوما بالهاء التى هى فى الأساس ضمير يلتصق بالذات . . ويلتحم معه فى ودّ حميم ، ويصبح الموقف آية فى العجب والروعة ، حين تتنصل الذات . . من هذا الضمير الحميم .

وفى سورة «الحاقة» نحس الرهبة التى تهز الحس هزاً عميقاً ، حيث تتوالى المشاهد فى إيقاع ملح على الحس يتنوع بين الهول والجلال ويبدو ذلك جليا فى تكرار «الحاقة» بلفظها وجرسها ودلالتها قال تعالى : ﴿**الحاقة * ما الحاقة * وما أدراك ما الحاقة**﴾[2] .

وإيقاع اللفظ بذاته أشبه برفع الثقل ثم استقراره فى قرار مكين . فالرفع فى مدّة الحاء بالألف والجدّ فى تشديد القاف بعدها واستقراره فى قافية الفاصلة المكررة وذلك بالانتهاء بالتاء المربوطة التى تنطق هاءً

---

(١) سورة عبس الآيات ٣٣ — ٣٧ .

(٢) سورة الحاقة الآيات ١ — ٣ .

للسَّكْت . ثم نلاحظ التنوع فى أداء المفردة التى هى فاصلة . حيث جاءت مقذوفة سريعة تدهش وتصيب بالهول وتستدعى الدهشة والخوف . ثم يتتابع الأداء بإضافات أسلوبية تدور حول الاستفهام للتعظيم مرة وللتجهيل وبعد المعرفة مرة أخرى . ونلاحظ هذا الايقاع فى متواليات مشاهد السورة . كما نرى فى المشهد الذى يتناول مصارع الضالين المكذبين .

قال تعالى : ﴿ **كذبت ثمود وعادٌ بالقارعة * فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية * وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية** ﴾[1] .

فالفاصلة التى تحمل الجرس المدوى فى الياء والهاء الساكنة بعدها سواء كانت تاء مربوطة ، أو هاء سكت لتنسيق الإيقاع فى مشاهد التدمير والهول والجزاء . فألفاظ الفاصلة تحمل دلالات المعنى حملاً واضحاً . «فالقارعة» تشى بالصوت المدوى الذى يصك المسامع ويقرع الكون بالدمار. تعبير مروع لبيان هول القيامة أحدثه جرس اللفظ بما يوحى به حروفه مثل القاف والراء والعين . . ويديمه ويقويه حرف المد حيث يصيب الكون كله . ولفظة «الطاغية» تفيض بالهول الذى حاق بالامم السابقة ، وإيقاع اللفظ يتفق مع إيقاع الفاصلة ، وهذا الإيقاع الذى هو تنوع لصورة الهول مع القيامة . . وكلمة «عاتية» وردت صفة للريح الصرصر بما تحمله من عذاب ودمار. والتعبير يصور العاصفة المدمرة . ثم لفظة «خاوية» التى تلخص نتائج الهول والعذاب وقد وردت فى أداء

(١) سورة الحاقة الآيات ٤ — ٧ .

تشبيهى يـؤكد على الموت والتآكل والهمـود بعد العاصفة المزمجرة، ويـأتى الإيقاع متفقـا مع الفـاصلة لينهـى به حـركة هـول مفزعـة ويصل بها إلى نتيجتها المحتومة. والمشاهد كلها حية يصاحبها هذا الإيقاع الذى حركته الفواصل وساعدت عليه فى إحـداث الجرس الخاص فى تنوعه وتلونه وفق نسق المشهد وإيقاعه.

تتغير الفـاصلة ليتغير الايقـاع إلى إحـداث رنـة رهيبة لحظـة إصـدار الحكم يوم القيامة.

قال تعـالى: **﴿خذوه فغلـوه * ثم الجحيـم صلُّوه * ثم فى سلسلـة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾**[1].

ولعلنا نلاحظ إيقاع الفواصل المستمر «غلوه، صلوه، اسلكوه».. هذا المدّ الطويـل الذى يعكس زمن العـذاب وطوله وما يترتـب عليه من إحداث الرهبة والتخويف.

ونـرجع إلى مشهـد الذيـن نجوا مـن النار ودخلـوا إلى الجنة وإيقـاع الفواصل فيها ومدى ملاءمتها للمشهد والدلالة.

قال تعالى: **﴿فأما من أُوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه * إنى ظننت أنى مـلاق حسابيه * فهو فى عيشة راضية * فى جنة عالية * قطوفها دانية﴾**[2].

إن الفرحـة تترقرق مـن المشهد، تملأ الجوانـح وتفيض على القلـوب والألسنة. ولننظـر إلى هاء السكـت فى الفواصـل التى أحـدثت الإيقـاع

(١) سورة الحاقة الآيات ٣٠ — ٣٢.

(٢) سورة الحاقة الآيات ١٩ — ٢٣.

المنغم الـذى يسـاعـد على إبـراز نبرة الفرح ورنتـه «كتـابيـه ، حسـابيـه» فالفـاصلة هنا هـى الياء المصحوبـة بهاء السكت لتنسيق الإيقـاع و إبراز صورة المشهـد فى هيئة حركية مـؤثرة . ثم تتحـاور الفاصلة مرة أخـرى مع الياء المصحـوبة بـالتاء الساكنـة التى فيها تشـديد و إقـرار وتمكين . ولقد كانت الفـاصلة الأولى واشية بهزة الفرح والمرح والمسرة . والفاصلـة الثانية لتأكيد النعيم وصوره .

ولعلنا نـلاحظ أن الإيقاع عكس الفـرحة التى غمرت قلـب المؤمن حين علم أن الله راحمه بعدما ظن أنه لا يخلف وعده .

كما نلاحـظ أثر الفـاصلة فى كشف حـالة الـذين عذبـوا بالنـار قال تعالى : ﴿**وأما منْ أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه * ياليتها كانت القاضية * ما أغنى عنى ماليه**﴾[1] .

أبرزت الفاصلـة — الياء المصحوبة بها السكت — قـربها من نفس المعذبين ومن كشفها لما حل بهم مـن حسرة وألم وعذاب ويأس ، ومن ثم طال المشهـد وتنوعت إيقـاعاته . . وتكـررت الألفاظ الواشيـة بهذا الندم (ياليتنى) كتأكيـد استحالة حصول المتمنى الذى يـأخذ النفوس فى تلك اللحظة ، والتنغيم فى الإيقاع يشمل الموقف كله .

(والرنـة الحزينة الحسيرة المديدة فى طرف الفـاصلة الساكنـة وفى ياء العلة قبلها بعد المد بالألف فى تحزن وتحسر . . هـى جزء من ظلال الموقف الموحية بالحسرة والأسى إيحاءً عميقا . . بليغاً»[2] .

مـع ما يفيـده جرس الكلمات و إيقـاع العبارات فى إطـالة الموقـف

---

(١) سورة الحاقة ٢٥ — ٢٨ .

(٢) الظلال جـ ٦ ص ٣٦٨٢ .

للعبرة .

. . وإنه لمن الجمال الفنى ومن التأثير الوجدانى ومن الغرض الدينى ، ما يجعل لطول الموقف غايته المقصودة .

وتغيرت الفاصلة عند تقرير أسباب العذاب الشديد الذى حاق بالكافرين يوم القيامة .

قال تعالى : ﴿**إنه كان لا يؤمن بالله العظيم * ولا يحض على طعام المسكين * فليس له اليوم هاهنا حميم * ولا طعام إلا من غسلين * لا يأكله إلا الخاطئون**﴾[١] .

والآيات تحمل سبب هذا العذاب وتصدر حكمها ، فالكافر خلا قلبه من الايمان ، كما خلا من الرحمة بالمساكين فاستحق العذاب ، وكان طعامه قيحا وصديداً هما ما ينز من أجساد أهل جهنم .

ولقد عكست الفاصلة هذا العداب سواء عذاباً حسيا أو معنويا ليتم له فى النهاية جحيم الجسم والروح معاً . وفى هذه المشاهد يبلغ التأثير الوجدانى غايته حيث تتفتح منافذ النفس للايمان . .

لقد تغيرت القافية ما بين الميم والنون فأحدثت رنة رزينة حاسمة تتلاءم مع المعنى الدينى فى السياق .

«إن فواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة ، لانها طريق الى إظهار المعانى التى يحتاج إليها فى أحسن صورة يدل بها عليها»[٢] .

●● إن الفواصل إحدى أهم الأدوات التعبيرية المحدثة للنغم والداعية الى التوافق والتلاؤم والايقاع ، كما أن التلاؤم ناتج عن النغم

(١ سورة الحاقة الآيات ٢٣ — ٣٧ .

(٢) — اعجاز القرآن — الباقلانى . تحقيق السيد صقر ص ٢٧١ .

وجرس القول وموسيقاه، فالحرف متلائم مع الحرف، واللفظ مع اللفظ، والجملة مع الجملة والآية مع الآية.

. . . والإيقاع النغمى يجمع بين الرنين والجرس الصوتى للفظ وذلك حين تكون الفاصلة متحدة الحروف متماثلة الوزن، متفقة فى الحرف الأخير ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**والطور * وكتاب مسطور * فى رق منشور * والبيت المعمور * والسقف المرفوع والبحر المسجور إن عذاب ربك لواقع * ماله من دافع**﴾[1].

إن الايقاعات الموسيقية للمقاطع والفواصل على السواء تحدث تنغيما يحتد ويمتد ليشمل السورة ككل. ويصاحب الإيقاعُ القسم بمخلوقات عظيمة، لإحداث التهيئة الحسية لتلقى الامر وهو حتمية العذاب. و إيقاع فاصلتى واقع — دافع، يوحى بالجسم والقطع. ويلقى فى الحس بمداهمة الهول حيث لا عاصم ولا حامٍ ومن ثم يُخترق الوجدان فيضعف الإنسان ويخور خوفاً من العذابً الشديد. «وفى إضافة العذاب للرب لطيفة إذ هو المالك والناظر فى مصلحة العبد فإضافته إلى الرب و إضافته إلى كاف الخطاب أمان له ﷺ. . وأن العذاب واقع بمن كذبه، ولفظ واقع أشد من كائن كأنه مهيأ فى مكان مرتفع فيقع على مَنْ حل به» ويروى عن جبير بن مطعم أنه قال: قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ فى أسارى بدر، فوافيته يقرأ فى صلاة المغرب (والطور وكتاب مسطور. . . إن عذاب ربك لواقع. . . فكأنما صدع قلبى فأسلمت خوفاً من نزول العذاب»[2] وحروف الفواصل تتحد فى —

(١) سورة الطور الآيات ١ — ٨.

(٢) انظر صفوة التفاسير جـ ٣.

أكثر مـن مقطع ثـم تتغيرإلى اتجاه المقاطع فى حـرف آخر غيرالسـابق مثلما رأينا فى الوزن وحـركة الصوت من فتـح ووقف، وسكون و إمالـة ومدّ . . مسطور، منشور، وكذلك واقع، دافع . .

ولقد جعل ذلـك كله النص يبوح بقدر كبير مـن الموسيقى المؤثرة فى النفوس حتى لتصبح خلجـات النفس متناسقة مع حركـات الإيقاع تهتز اهتزازها، وتميل مع إمالتها .

●● و إذا كان التماثل فى الفواصل ظاهرة عامة فى النص القرآنى فإن ثمة آيات تتقارب فيها مقاطـع الفواصل تقارباً يحدث الإيقاع والرنين الصوتى وذلك دون أن تتحد الفـواصل فى حرف واحد . . و إن لم تخل من الوزن الجامع للفواصل . .

قال تعالى : ﴿**ق والقرآن المجيد * بل عجبوا أن جاءهـم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب * أإذا متْنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعنـدنا كتابٌ حفيظ * بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج**﴾[1] .

الآيـات الكريمـة من أول سـورة ق . . وهى سـورة غنية بـإيقاعهـا وبنائها التعبيرى الذى يأخذ بجوانـب النفس ودخائلها . وللفواصل فيها جرس صوتـى أخاذ يتلاحق موجـة إثر موجة، ونغمة إثـر نغمة، متراوحا بين حروف الدال، والباء — وهما الأكثر وروداً — والجيم ثم الراء .

وفى الآيات قسـم بالحرف قاف وبالقـرآن المجيد، المؤلف مـن هذه الحروف . . ولعلنا نلاحـظ تكرار الإيقاع الداخلى الناتج عـن تكرار حرف

---

(١) سورة ق الآيات ١ — ٥ .

القاف . وتذكر الآيات عجب الكافرين واستنكارهم للبعث ومع أن قضية البعث قاعدة أساسية فى العقيدة مشاهدة رأوا لها مثالا من الجدب والنماء إلا أنهم نظروا إليها فى سذاجة وحمل الاستفهام الإستنكارى هذا المعنى . . إذ كيف يكون بعث بعد الموت والبلى؟

إن أجسادهم تتآكل «والله يعلم ما تأكله الارض من أجسادهم وهو مسجل فى كتاب محفوظ فهم لا يذهبون ضياعاً إذا ماتوا وكانوا تراباً»[1] . . انهم قوم مادت بهم الأرض ولم يستقروا على شىء . ذلك أن كل ماعدا الحق الثابت مضطرب مائج مزعزع . ومن ثم تزل القدم ويفقد الإنسان الطمأنينة والقرار.

. . وفى الآيات ليس ثمة اتحاد فى الفواصل ، بل تتنوع وتتغير، ومع هذا التغير تحتفظ الفاصلة بإيقاعها النغمى ، إنه الإيقاع الناتج عن تقارب مخارج الحروف — الدال ، الباء ، الظاء . . مع وجود حرف المدّ قبل الحلأ الاخير وهو حرف الياء مجيد ، بعيد ، حفيظ ، مريج . . ومن ثم يصبح نسق القول واحداً ، والإيقاع متوازنا ، بالرغم من أن الفاصلة لم تتفق اتفاقاً تاماً فى الحروف . . ويجمع ذلك كله «اتحاد النغم والموسيقى فى كل المقاطع فهى كلها مؤتلفة فى حروفها وألفاظها وجملها ومقاطعها»[2] .

وقد تخلو الآيات من فواصل متحدة ومع ذلك يبقى الإيقاع الموسيقى مصاحبا للآيات وذلك ناتج عن التلاؤم بين الحروف وبين الجمل من خلال السياق الداخلى للنص .

---

(١) الظلال جـ ٦ ص ٣٣٥٨ .

(٢) القرآن المعجزة الكبرى ص ٢٩٤ .

●● وإننا نلاحظ هذا الحرص الشديد فى النص القرآنى على إيقاع الفواصل مما يعنى أهمية الفاصلة للنص وللقارىء معاً . فهى تحدث التأثير الوجدانى المطلوب، بحيث يصل المعنى إلى المتلقى فى أداءٍ منغم مؤثر . ومن ثم نلاحظ على بناء بعض الفواصل حذف بعض الحروف للإبقاء على حالة الإيقاع التى يحدثها تشابه الحروف وتماثلها فضلا عن الدلالة المعنوية .

قال تعالى : ﴿**والفجر * وليال عشر * والشفع والوتر * والليل إذا يسر**﴾[1] . .

والآيات الكريمة قسم بضوء النهار وبالليالى العشر من ذى الحجة وبالزوج والفرد . . وكأن الله أقسم بكل شيء لأن الاشياء إما أن تكون زوجية أو فردية كما أقسم بالليل . . والجواب محذوف يفهم من خلال السياق . وهو العذاب الواقع على الكفار.

ويسرى عبر هذه الآيات هذا الجمال التعبيرى الرائق الذى يجمع الكائنات والخلائق فى نسق جميل يتمثل فى تنفس الصباح لحظة الميلاد بما يوحى من حركة ومَدّ وفرح، وحركة الليالى المباركة التى تتفرد حركتها وسط الليالى الكثيرة المتنوعة . . ولعل حركة الاشياء المرتبطة بالخالق توحى بأن المراد بالشفع والوتر مايتصل بالصلاة . . وهذا رأى قاله سيد قطب رحمه الله انطلاقاً من تحليله للنص وإدراكه لمعنى الحركة الكلية المنبثقة من المشاهد : يقول «والشفع والوتر يطلقان روح الصلاة والعبادة فى ذلك الجو المأنوس الحبيب . . جوّ الفجر والليالى العشر . . وهذا المعنى هو

(١) سورة الفجر الآيات ١ — ٤ .

أنسب المعانى فى هذا الجو حيث تلتقى روح العبادة الخاشعة بروح الوجود الساجية»[1] . . كما أن الليل مخلوق حيّ يتحرك حركته . . وتنبثق من الآيات النغم الجميل عبر هذا التناسق الفذّ فى إيقاع الفواصل : الفجر، عشر، وتر، يَسْر.

ولعلنا نُلاحظ حرص الآيات على استمرارية الإيقاع ومن ثم لاحظنا حذف الياء فى «يَسْر» طلبا للموافقة فى الفواصل . وذلك لبيان أهمية الفاصلة فى النص ولدى المتلقى معاً ، من حيث الابقاء على مناطق الايقاع والتأثر النفس . . . ونلاحظ هذا الحرص على تواصل الإيقاع واستمراريته كسمة لإيقاع الفواصل . . فى قوله تعالى : ﴿**والنجم إذا هوى * ماضَلّ صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى * علّمه شديد القوى * ذو مرة فاستوى * وهو بالأفق الأعلى * ثم دنا فتولى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى * ما كذب الفؤاد ما رأى * أفتمارونه على مايرى * ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى * مازاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى * أفرأيتم اللات والعزى * ومناةَ الثالثة الأخرى * ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذنْ قسمة ضيزى**﴾[2] .

أقسم سبحانه بالنجم الساقط الراصد على صدق الدعوة المحمدية الداعية إلى الهداية ، والوحدانية ، ورسول الله ﷺ لا يقول باطلاً ولا ينطق عن الهوى و إنما هو الوحى من الله يتلوه قرآنا عربيا نزل به جبريل عليه

---

(١) الظلال جـ٦ ص ٣٩٠٣ .

(٢) سورة النجم الآيات ١ — ٢٢ .

السلام مبلغا . . . إلى الرسول ﷺ أوامر الله . وتستنكر الآيات أن يجادل المشركون رسول الله حول الإسراء والمعراج ، مؤكدة أنه ﷺ قد رأى جبريل مرة أخرى عند سدرة المنتهى فى السماء السابعة قرب العرش . وسميت بهذا الاسم لأنه [لايعلم أحد ما وراءها إلا الله] . ولم يزغ بصر الرسول فى ذلك المقام العظيم ، وما جاوز الحد . ولقد رأى الرسول آيات عجيبة ، كرؤية جبريل — مثلا — فى هيئته الملائكية وله ستمائة جناح على نحو ما ورد فى حديث الإسراء والمعراج . ثم تتساءل الآيات فى تبكيت عما إذا كان الكفار قد رأوا آلهتهم؟ وهل لهم من القوة والعظمة ما تعطى وتمنع؟ وتوبخهم حين نسبوا إلى الله البنات .

إننا هنا فى مجال علوى يشع بالروحانية والنورانية . والحدث — المعراج — عظيم حيث تحددت أبعاده فى السماء ، وحيث كُرّم الرسول فى ضيافة الخالق عز وجل . وجاءت الآيات تبعا لهذا العلو. قطعة من الموسيقى ، ينبثق منها هذا النور المنغم ، المتموج ، المتلألىء ، الذى يضج بالبهاء والصفاء والعظمة . إنه النغم السارى فى البناء التعبيرى اللفظى ، وفى تراكيب الجمل والعبارات كما يسرى فى إيقاع فواصلها الموزونة المقفاة .

(وذلك الإيقاع ذو لون موسيقى خاص ، لون يلحظ فيه التموج والانسياب . . وهو يتناسق مع الصور والظلال الطليقة . . التى تشع من المجال العلوى الذى يقع فيه الحدث النورانى والمشهد الربانى ، متناسقة مع حركات جبريل وهو يتراءى للرسول»[١] . إنه جو روحى أثر فى الإيقاع التعبيرى فامتزج به وتناسق معه .

---

(١) الظلال جـ ٦ انظر ص ٣٤٠٤/ ٣٤٠٥ .

ولقد بدا النص القرآنى حريصا على الإيقاع، ضاناً به أن يختل به أو يفقد تأثيره . . حتى يظل لإيقاع ا نسيابه الرقراق، وتأثيره المشرق فى الوجدان.

والحرص على تسلسل الإيقاع ملحوظ فى بعض الفواصل. ففى قوله تعالى ﴿**أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى**﴾. نلاحظ أننا لو حذفنا كلمة «الأخرى» لاختلت الفاصلة وتصدع الإيقاع. ولو حذفنا «إذن» من قوله تعالى ﴿**تلك إذن قسمة ضيزى**﴾. لاختل الإيقاع، حيث يستقيم الإيقاع بكلمة «إذن» كما استقام بكلمة الأخرى.

لا يعنى هذا أن كلمة «الأخرى» وكلمة «إذن» زائدتان لمجرد القافية والوزن . . فهما ضرورتان فى السياق . . وتلك ميزة فنية أخرى أن تأتى اللفظة لا لتؤدى معنى السياق وتؤدى تناسبا فى الإيقاع دون أن يطغى هذا على ذاك، أو يخضع النظم للضرورات)[١].

والقرآن الكريم انفرد بهذا الوجه المعجز فتآلفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو بدل بغيره، أو أقحم معه حرف آخر لكان ذلك خللا بيّنا أو ضعفا ظاهراً فى نسق الوزن وجرس النغمة وفى حس السمع وذوق اللسان وفى انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف . . وقد يتأتى ذلك بحذف بعض الحروف لملاءمة القافية ونجد ذلك فى قوله تعالى: (حكاية عن ابراهيم)

﴿**فإنهم عدو لى إلا ربّ العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم**

---

(١) التصوير الفنى ص ١٠٤.

يحيين * والذى أطمع أن يغفرلى خطيئتى يوم الدين﴾[1] .

ولعلنا نلاحظ أن يا ء المتكلم قد خطفت خطفا فى «يهدين، يسقين، يشفين، ويحيين» وذلك محافظة على حرف القافية (النون) . . وذلك لتحقيق قصد الانسجام فى إيقاع الفواصل . مع مراعاة أن الفاصلة القرآنية يؤدى لفظها فى السياق الدلالة المعنوية التى لايؤديها لفظ آخر . .

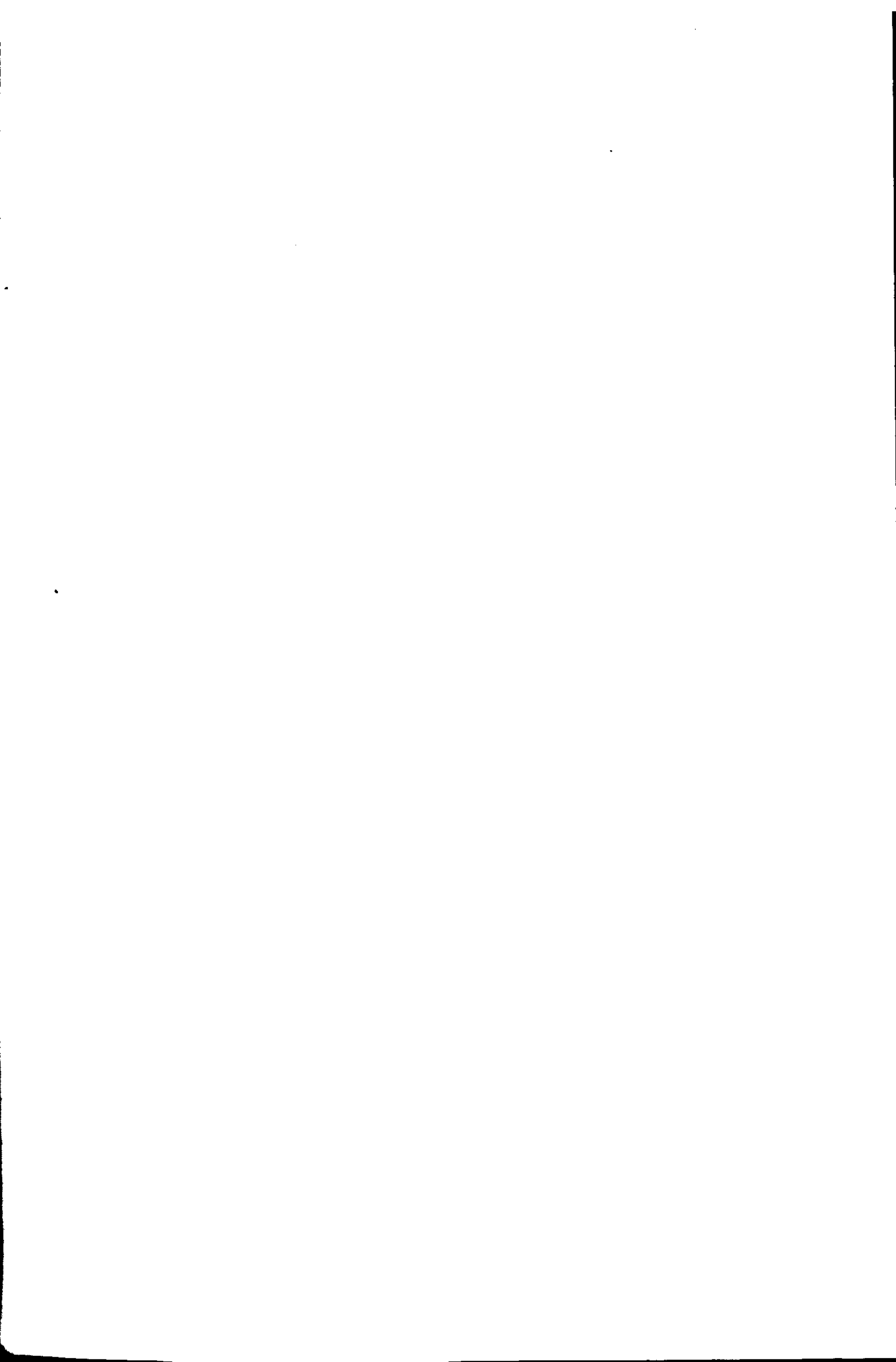
ولعلنا نسترجع — تاريخيا — أن موسيقى القرآن الكريم وإيقاعه المنغم قد استرعى انتباه العرب وأثر فى سماعهم ونفوسهم وأجاش داخلهم ورأوا فيه الحلاوة والطلاوة ونغم اللفظ وجرسه مع جمال المعنى وإحكامه . فللقرآن نظامه الصوتى الفريد (ونريد بنظام القرآن الصوتى، اتساق القرآن وائتلافه فى حركاته وسكناته ومدّاته وغنّاته، واتصالاته وسكتاته اتساقا عجيبا، وائتلافاً رائعاً يسترعى الأسماع ويستهوى النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أى كلام آخر من منظوم ومنثور. . وأن من شأن الجمال اللغوى والنظام الصوتى أن يسترعى الأسماع ويثير الانتباه ويحرك داعية الإقبال فى كل إنسان إلى هذا القرآن . .)[2]

(١) سورة الشعراء الآيات ٧٧ — ٨٢ .

(٢) التبيان فى علوم القرآن . محمد الصابونى ص ١٠٩ وانظر مناهل العرفان محمد عبد العظيم الزرقانى جـ ٢ .

الفصل الرابع :

● الأداء التصويرى
● ومشاهد الجنة



يغلب التصوير الحسي على مشاهد الجنة فى القرآن. وهذا التصوير يجعل المشهد المحسوس حياً متحركا وبارزاً مشخصاً. وتتضافر مكونات المشهد فى وحدة جمالية متنوعة بحيث تؤدى الدور المرسوم. وتوحى بالمعنى المستكن خلف المشهد فتخفق القلوب، وتتشوق الأرواح، وتسرى فى النفس الطمأنينة ويشيع سكون القلب.. وذلك كلما خطر على القلوب خاطر الجنة ومشاهدها البالغة الروعة.

ومشاهد الجنة بما تتضمنه من متع وجمال ولذة قد أعدت للذين آمنوا وعملوا الصالحات. ومن منطق التقابل لإدراك جمال النعمة، وعظمة الرضى الإلهى، ورحمته بالمؤمنين.. تأتى مشاهد النار حافلة بالعذاب ناضحة بالالم، دامغة هؤلاء الذين كفروا بربهم وأنكروا البعث والنشور. ومشاهد الجنة غنية بمفردات التكوين الجمالى، حافلة بصور شتى تنضح بالمتعة فى أنساق مادية ولونية وحركية فتتجسد عالما كامل التكوين، حافلاً بالروعة والمتعة، والراحة، والرضى.. «وتتراءى عشرات من الأوضاع والأشكال والسمات، وتؤلف بذلك ملاحم فنية رائعة، تتملاها النفس، ويتابعها الخيال، ويستغرق فيها الحس، وتتراءى فيها الظلال، وتضيف إلى الثروة الأدبية الفنية صفحات مفردة، لا شبيه لها ولا مثال»[١].

(١) مشاهد القيامة فى القرآن سيد قطب ص ٤٣.

إنها مشاهـد حية تقاس فيهـا الأبعاد بالمشـاعر والوجـدان، وتصور المشاهد متفاعلـة فى النفوس، وقد خلعت عليها الطبيعة الحيـاة بأبعادها المتنوعة.

ويصبـح النعيـم فى الجنة، وقـد تمتعـت بـه الأجسام وسعـدت بـه الجوارح — دقيقا فى رسمـه، عميقا فى تصويـره، يحمل الظـلال النفسية الرقيقة التى تتبَّدى على الملامح سكينة، وجمالاً وحبوراً واطمئناناً.

.. ولعل أهم مـلامح التصوير فى مشـاهد الجنة، هو تجسيـم ذلك النعيم تجسيما ماديا ملموساً.. كأنـك تلمسه بأصابعك وتحسه بنفسك. ويتحـول المشهـد المادى إلى قطعـة مصـورة مـن الجمال، حيـث يتجلى التناسـق فى مفردات المشهـد من حيـث التماثل أو التشـابه أو التقـابل أو التـداعـى كما يتجلى فى جـرس الألفـاظ ليعطـى الإيقـاع المنـاسـب لجو المشهـد، كما يتجلى فى اتساق المشهـد كلـه بـألفاظـه ومعـانيـه وجرسـه وإيقاعـه مع السيـاق العام الـذى يعرض فيـه. ذلك أن مشـاهد الجنـة «مسـوقـة لأداء الغرض الـدينـى، ذلـك الغرض الأول للقـرآن. ولكنهـا تتصل بالوجدان الدينى عن طريق الوجدان الفنى»[1].

... ولنقف أمام مشهـد الجنة الذى ورد فى سورة الواقعـة، لنتدبر هذا التناسق الجميل فى تكوينات المشهد الجمالية.

قال تعالى: **﴿على سُرر مَوضونة * مُتّكئين عليها مُتقابلين * يَطُوف عليها ولدانٌ مُخَلدون * بأكوابٍ وأباريـق وكأس من مَعين * لا يُصَدعُون عنها ولايُنـزفون * وفاكهـة مما يتخيرون *** ولحم طير مما يشتهون * **وحـورٌ**

(١) مشاهد القيامة ص ٤٧.

عينٌ كأمثال اللؤلؤ المكنون * جزاءً بما كانوا يعملون﴾[1] .

وهذا مشهد حسى من مشاهد النعيم التى يتمتع بها أهل الجنة فهم يجلسون على أسرة مذهبة ، ويضطجعون فى استرخاء لذيذ شأن الانسان المترف المنعم ، يتواجهون فى سرور وحبور لا ينظر أحدهم فى ظهور أحد انطلاقا من حسن العشرة وتهذيب الأخلاق .

ويطوف عليهم ، يخدمونهم ويلبون حاجاتهم ، أطفال صغار يتسمون بالنضارة والجمال ، ومعهم الأقداح والأباريق والكؤوس وقد امتلأت بخمر لذيذة تتدفق من العيون ، فيها لذة لمن يشرب ، ولا تتصدع من شربها الرؤوس ، ولا تغيب الحواس منها أو تتخدر العقول . . وهم فى متعتهم تنضاف متع أخرى تشعر باللذة حين يمدون أيديهم فيتناولون ما يشتهون من فاكهة طازجة ناضجة ، ولحم طير على أشهى ما يريدونه .

«قال ابن عباس : يخطر على قلب أحدهم لحم الطير، فيطير حتى يقع بين يديه على ما اشتهى مقليا أو مشويا»[2] .

ويتألق النعيم الحسى حين يأتى الحديث عن نعيم النساء الذى وعد به أهل الجنة . فهن نساءً واسعات العيون ، بالغات حداً فائقاً من الجمال والبهاء والصفاء وكأنهن فى نقاء اللؤلؤ وصفائه . إنه لؤلؤ مكنون لا يتغير حسنه ولا يتبدل . .

سألت أم سلمة رسول الله ﷺ عن هذا التشبيه فقال : «**صفاؤهن كصفاء الدر فى الأصداف الذى لم تمسه الأيدى**» .

وهذا التشبيه الحسى يجمع بين طرفين حسيين يشع الجمال منهما . .

---

(١) سورة الواقعة الآيات ١٥ — ٢٤ .

(٢) صفوة التفاسير جـ ٣ ص ٣٠٧ .

* ولقد وردت هذه الصورة متكررة فى آيات أخرى . . مما يوحى بحرص القرآن على تكريس الصورة الحسية . . والتى تحمل معنى خلقيا عفيفاً فى جوانب الصور الأخرى . .

قال تعالى : ﴿**وعندهم قاصرات الطرف عِين * كأنَّهن بَيضٌ مكنون**﴾[1] .

إن نساء الجنة يتمتعن بالعفة والحياء، فهن يقصرن أبصارهن على أزواجهن، فلا يسرحن النظر هنا، أو هناك، لما يتمتعن به من حياء يصون عليهن الكرامة، وهو حياء يحتوى النفس والسلوك معاً . . وهو ما يشعر بالحب للزوج والوفاء له . وهن مع هذا الحياء جميلات العيون يتصفن بالحسن والبهاء، فعفتهن عن ثقة بالنفس وعن تكامل فى الجمال وليس عن انتقاص فى الشكل والهيئة . . كما أنهن كاللؤلؤ المكنون فى أصدافه . «لاتبتذله الأيدى ولا العيون . والعرب تشبه المرأة بالبيضة لصفائها وبياضها» .

وقال تعالى : ﴿**كأنَّهن الياقوت والمرجان**﴾[2] .

فالنساء فى جمالهن وصفاء ألوانهن والوجوه المشربة بالحمرة كأنهن الياقوت فى صفاء لونه، والمرجان فى حمرته الدافئة .

«قال قتادة : كأنهن فى صفاء الياقوت وحمرة المرجان، لو أدخلت فى الياقوت سلكاً ثم نظرت إليه لرأيته من ورائه» .

ولعل الصورة التشبيهية التى وضحت المعنى المراد من الجمال

---

(١) سورة الصافات الآيات ٤٨ — ٤٩ .

(٢) سورة الرحمن آية ٥٨ .

والبهاء، قد عقـدت صورة حسية كاملـة الأبعاد حتى أصبح الطـرفان فى الصورة واضحين فى مجال التشبيه من حيث البهاء والصفاء».

«إن تشبيهات القـرآن الكريم أيـاً كان وجههـا صوربيانيـة، تتضح منها الحقائق الظاهرة، والمعانى العاطفـة، كأنها أمور محسوسة مرئية، فإذا كان التشبيه بأمر محسوس كانت الصورة البيانية كأنها مرئية واضحة»[1].

فكأننـا نرى رأى العين النســاء فى الجنة، جمالاً وبهاءً وصفـاءً كأنهن قطع من اللؤلـؤ والياقوت. تشع وجوههن بالبهـاء، ويشى لونهن باحمرار يتغلغل فى بيـاض ناصـع كالـدر المكنون. . وتبـدو المرأة كأنها قُـدّت من اللـؤلؤ الخالـص. إنه تصـويريـريـك الجمال والبهاء مجسـدين فى صـورة متحركة تشبع القلب وتريح الحس وتثرى الوجدان. .

● وتصور آيات أخرى فى «الواقعة» نساء الجنة تصويراً يعطى تكاملاً لأبعاد الصـورة المرسومة للمرأة فى الجنة. . فتبدو الصـورة متناسقة مع مشهد النعيم الذى يتمتع به الرجل.

قال تعـالى: **﴿إنّا أنشـأناهـن إنشاءً * فجعلناهُـن أبكاراً * عُرُبـاً أتراباً﴾**[2].

الصـورة فيهـا تكويـن جـديـد يعطـى أبعاداً عميقـة تشرح البهـاء والجمال فى الآيات السابقة. .

فلقد خلق الله نســاء الجنة خلقاً جديداً، فهـن دائماً عذارى، وهن دائماً متحببات للأزواج، عاشقات لهم.

---

(١) القرآن — المعجزة الكبرى محمد أبو زهرة ص ٢٥٥.

(٢) سورة الواقعة الآيات ٣٥ — ٣٧.

قال مجاهد: هن العاشقات لأزواجهن، المتحببات اللواتى يشتهين أزواجهن» . كما أنهن مستويات ومتماثلات فى السن . فهن «على ميلاد واحد فى الاستواء كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً . فلما سمعت عائشة رضى الله عنها ذلك من رسول الله ﷺ قالت: وا وجعاه . فقال رسول الله ﷺ: **ليس هناك وجع**»(١) .

. . إن مفردات الصورة تعطينا أبعاد المشهد فى تكوين يحتوى عناصر المتعة والجمال . . وقد توخت الصورة البعد الحسى انطلاقاً من تقريب البعيد، وتجسيد المتخيل، وتجسيم المعنوى، وتأكيداً على المعنى الدينى العميق الذى يترقرق تحت الصورة . . وهو رضى الله عن عباده المؤمنين المتقين، وإغراءً بالتقوى لنيل هذا النعيم الممتع اللذيذ .

● ويتكرر المشهد فى صور مماثلة تقريبا . . ويتأكد الجمال من خلال السياق وعبر المفردات المحملة بظلال من المعانى المصاحبة فى جدّة وتجدُّد .

● قال تعالى: ﴿**إن المتقين فى جنات ونعيم * فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربُّهم عذاب الجحيم * كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون * متكئين على سُرر مصفوفة وزوجناهم بحور عينٍ * والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء كل امرىء بما كسب رهين * وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم * ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون * وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قالوا إنّا كُنا**

---

(١) الكشاف جـ ٤ ص ٥٩ .

قبل فى أهلنا مشفقين﴾[1] .

فالمتقون يتنعمون بالجنة نعيما مقيما ، ويتلذذون بما أعطاهم الله من أصناف المأكل والمشرب . ويَمُن الله عليهم أن نجاهم من النار.

«يقول ابن كثير: وتلك نعمة مستقلة بذاتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة»[2] .

وهم يجلسون فى جنتهم على سُرر مذهبة مكللة بالياقوت مرصعة بالدر مع زوجات بيضاوات حسان ، ومعهم الأبناء حتى تقر العيون وتهدأ النفوس .

وراحة النفس معنى صاحب أهل الجنة من المتقين ، بما يضفى على النفس السكينة وبما يجعل طبيعة المشهد ساكنة فى جلال ، مطمئنة فى رضى ، تشع عنصراً جمالياً نفسيا يضاف إلى عناصر الحس الممتعة الأخرى . . فالنفس لا تتوزع ولا تنشطر ولا يشغلها شاغل . .

قال ابن عباس , إن الله عز وجل ليرْفَع ذرية المؤمن معه إلى درجته فى الجنة . . وإن لم يبلغها بعمله ، لتقَرّبهم عينه) .

«ويقول الزمخشرى : فيجمع الله لأهل الجنة أنواع السرور، بسعادتهم فى أنفسهم ، ومزاوجة الحور العين ، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين ، وباجتماع أهلهم ونسلهم بهم»[3] .

وهم يتعاطون فى الجنة كؤوس الخمر يتجاذبونها فى تلذذ وأنس وسرور، دون أن يقع بينهم ما يسيىء ، ولا يلحقهم أذى مما يحدث فى خمر الدنيا .

---

(١) سورة الطور الآيات ١٧ — ٢٦ .

(٢) مختصر ابن كثير جـ ٣ ص ٢٩٠ .

(٣) الكشاف جـ ٤ ص ٣٤ .

«قال قتادة: نزه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفى عنها صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام الفارغ الذى لا فائدة فيه، المتضمن للهذيان والفحش ووصفها بحسن منظرها، وطيب طعمها».

ويخدمهم غلمان مخصصون لهم كأنهم اللؤلؤ جمالاً وصفاءً.. وهم فى نهاية المشهد يتسامرون تلذذا واعترافاً بالنعمة، متسائلين عن أحوال الدنيا وأعمالهم فيها حيث كانوا خائفين من الله مشفقين من عذابه وهاهم قد مَنّ الله عليهم بالجنة ووقاهم عذاب جهنم.

ذلك أنهم «عاشوا على حذر من هذا اليوم، عاشوا فى خشية من لقاء ربهم، عاشوا مشفقين من حسابه. عاشوا كذلك وهم فى أهلهم، حيث الأمان الخادع، ولكنهم لم ينخدعوا، وحيث المشغلة الملهية، ولكنهم لم ينشغلوا»(١).

● ولعلنا نلاحظ فى المشهد تنوعا جديداً فى التعبير يصور حالة المؤمنين تصويراً دقيقاً، ومن ثم وشت المفردات بذلك.

فالكأس يتنازعها أهل الجنة، وليس فى الجنة تنازع وإنما هى المنادمة على الشراب زيادة فى الصفاء وتأكيداً للمحبة، فالتبادل تلذّذ بالكأس المشتركة وهى تدور عليهم فرداً فرداً مع مايصاحب الفعل من حركة ونظرة وحديث. وأصبحت الكأس قاسماً للذة مشتركة تبعث على السرور والرضى. وهى ليست واحدة إنما متعددة تحوى شراباً من نوع واحد.

---

(١) الظلال جـ٦ ص ٣٣٩٧.

(والكأس «لا لغو فيها ولا تأثيم» وهو تعبير لطيف. فهذه الكأس لا لغو فيها. كأنما اللغو الذى يهذر به الشاربون من خمر الدنيا كامن فى ذات الكأس التى بها يشربون. أما هذه الكأس الفردوسية فمبرأة من اللغو، مبرأة من الإثم أيضا)[1].

.. كما أن مشهد السمر اللذيذ الممتع يعكس حالة الاسترخاء المحبب وحولهم كل ما يلذ ويشتهى.

«وبهذا المشهد تتم صورة المتاع، فهو متاع الحس، ومتاع الخاطر، ومتاع الضمير».

● والمشهد استعراض لمفردات الصورة التى تناولت النعيم ومساحته وتنوع لذائذه.

ولعلنا نلاحظ مساحة المجال — المكان — وقد انفسح وتنوع. وغلب على المكان اللون، وأصبحت المساحة تشكل صورة مرسومة لتكوينات لونية حسية تشغل حيزا فى المساحة، وكل تشكيل يتنامى مع الآخر فيعطى للمجال التشكيل التصويرى العام.

وأرضية اللوحة الكلية مترعة بجمال حسى متعدد الدرجات. فثمة بساط من الخضرة، وقد رصت على جوانبه أرائك تتحاور لونيا مع لون المساحة.. فيبرز الذهب والياقوت فى تألق لونى وبهاء مشع. وفى وسط المساحة تتبدى الفاكهة فى طزاجتها ونضجها أنواعاً من اللون فى درجاته المتنوعة، واتخذت نظاماً يعكس جمالاً فى مجال الرؤية، حيث رصت فى نظام بديع يكشف الجمال اللونى، ويغرى بالاشتهاء.. ومن خلال هذه

---

(١) مشاهد القيامة ص ٢٠٧.

الطزاجة اللونية والحسية، تفوح الرائحة من الفاكهة والطعام، فتثير النفس وتنعش القلب، وتدغدغ الحس.

والكأس شغل حيزاً متحركا يضوى بالنور ويمتلىء بشراب له لون الخمر يتناسق ويتحاور مع بهاء الولدان وما يتبدى منهم من جمال.

والأفراد يضفون على سكون المجال وسكينته حركة متوازنة مع توزع مفردات المساحة وتنوعها.

إن اللون يتسيّد الوحدة التصويرية ويستدعى إثارة الحس البصرى واستكناه الخيال لإدراك الصورة.

ولقد تكاملت الوحدة بتنويعات تشكيلية منسجمة.

●● وثمة نمط مشهدى آخر يتناول صور النعيم فيفصلها تفصيلا.

قال تعالى: ﴿**إنّ الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً * عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً * يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا * ويطعمون الطعام على حبّه مسكينا ويتيما وأسيرا * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً إنا نخاف من ربنا يوماً عبوسا قمطريراً * فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً * وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً * متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً * ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا * ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا * قوارير من فضّة قدروها تقديرا * ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا * عينا فيها تسمى سلسبيلا * ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثوراً وإذا رأيت ثمّ رأيت نعيما وملكا كبيراً عاليهم ثياب سندس**

خُضرٌ واستبرقٌ وحلُّوا أساور من فضة وسقاهم ربُّهم شراباً طهوراً * إن هذا كان لكم جزاءً وكان سيعكم مشكوراً﴾[1] .

الآيات الكريمة تشى بصور النعيم الحسية المفصلة . ولقد وصفت الأبرار بما يناسب النعيم الهادىء الرغيد .

فشرابهم فى الجنة ممزوج بالكافور من عين تتفجر تفجيراً، فيها الكثرة والوفرة . ولذة الشعور به تتضاعف وترقى . وهو نعيم يتلاءم مع عباد الله ، الأبرار، الذين شفّت قلوبهم وأخلصت لله العبادة . وقد آنسهم الله وأكرمهم ولعل الاضافة المعنوية فى عبارة (عباد الله) توحى بهذا المعنى . ومن ثم صورت الآيات هؤلاء فى صورة وضيئة شفافة لقلوب مخلصة عازمة على الوفاء . إنهم يلتزمون بدينهم شاعرين بثقل الواجب ، يتصفون بشعور البر والعطف والخير، يخافون الله ويخشون يوم الحساب . ومن ثم أسرع السياق بوقايتهم من شر هذا اليوم و إنعامه عليهم بالجنة .

وكانت صورة الجنة بمفرداتها واشية بهذا الجزاء . وتمازجت الصورتان صورة المحتفى به ، وأدوات الاحتفاء .

فهم يتمتعون بجو جميل لا هو بالبارد ولا هو بالحار، يستروحون جمال الظلال . فهم لا يرون فيها شمسا ولا زمهريراً، كما أن الظلال دانية ، والثمار دانية .

قال ابن عباس : إذا همّ أن يتناول من ثمارها تدلّت إليه حتى يتناول منها ما يريد) .

وتضاف صورة جديدة لألوان المتعة واللذة التى ينعم بها الأبرار

---

(١) سورة الإنسان الآيات ٥ — ٢٢ .

المتقون وهى أنهم يلبسون ثيابا غاية فى الجمال والنعومة حيث صنعت من الحرير ما رقَّ منه وما غلظ كما يتزينون بالأساور الفضية . . وهذا النعيم كله إنما هو عطاء من الله . عطاء كريم من معطٍ كريم .

ومن الجدير ذكره أن الاساور قد تنوع وصفها فى السياق القرآنى فقد وردت فى سورة الكهف ﴿**يحلون فيها من أساور من ذهب**﴾ . وفى سورة فاطر ﴿**يحلون فيها من من أساور من ذهب ولؤلؤا**﴾ . . (إنهم تارة يلبسون الذهب فقط ، وتارة يلبسون الفضة ، وتارة يلبسون اللؤلؤ فقط على حسب ما يشتهون ، ويمكن أن يجمع فى يد أحدهم أسورة الذهب والفضة واللؤلؤ)[1] .

وثمة تفصيل آخر يدور حول مفردة من مفردات الصورة ، فهذه أوانى الشراب الفضية صافية كالزجاج ، متنوعة الأحجام فى تناسق بديع ، ثم هى تمتزج بالزنجبيل مرة وبالكافور مرة أخرى . كما تملأ من عين عذبة جارية . . ولعل المناسيب الجمالية مقدرة بحيث يتحقق المتاع والجمال معاً . ومما يزيد جمال الأوانى أن الساقين أطفال فى سن الصباحة والوضاءة كأنهن قطع من اللؤلؤ الفائق الجمال .

إن السياق يمد بأبصارنا فحيثما اتجه النظر فثمة نعيم عظيم وملك كبير، وتتمازج مفردات المشهد فى إبراز هذا النعيم العظيم . فعباد الله يتنعمون بمتاع الجنة من شراب ، وظلال ، وثياب وحُلى .

وصورة عباد الله وهم على أرائكهم صورة تبين هذا النعيم المقيم . فثمة استرخاء وتمدد ، وراحة واسترواح وإحساس بالسعادة تشرق به

---

(١) صفوة التفاسير جـ ٣ ص ٤٩٥ .

الوجوه، فتلك الاشجار التى تلقى بظلالها تنويعا لالوان المتاع، تتدانى بأغصانها المترعة بالثمر فتتدلى الثمار حتى تصبح عند أطراف الأصابع تلتقطها فى شوق ولذة.

● وفى سورة محمد يتضح لنا بعد آخر من أبعاد الصورة.

قال تعالى: ﴿**مثل الجنة التى وعد المتقون، فيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات**﴾[1].

الآية الكريمة تعطينا بُعدا آخر لصورة الجنة، بُعدا تتكامل فيه الجزئيات، وتسيطر مفردة واحدة على المساحة. إنها الأنهار الجارية، الممتلئة المتدفقة التى ينبثق من جريانها هذا الصوت الجميل فتسعد به النفس ويمتلىء القلب سروراً.. إن العين فى رصدها للمجرى تحدث لذة جمالية، والأذن وهى تتسمع هذا الصوت تلتذ بإيقاع الحركة المتناغم الداخل إلى الوجدان الباعث فى الشعور سروراً وفرحاً.. ثم تأتى حاسة التذوق بما يسد رغبات النفس والجسم معاً.

لقد توزعت المفردة الكبرى (الأنهار) إلى جزئيات تتباين من حيث المادة التى يحتويها المجرى.. إنه تنوع فى المحتوى، يحدد طبيعة النهر وسر النعمة فيه.

فثمة أنهار تجرى فيها المياهُ الصافية العذبة التى لا يتغير طعمها أبداً، فتظل تحتفظ بعذوبتها، وأنهار تمتلىء باللبن المصفى حلاوة ودسما لا يفسد ولا يتحول، وأنهار تجرى بخمر لذيذة الطعم يتلذذ بها

(١) سورة محمد الآية ١٥.

الشاربـون، خاليـة من كـل ما يُفسـد أو يسيء، وأنهار جـارية بـالعسل المصفى حسن اللـون والرائحة، طيب الطعم حلـو المذاق، وذلك فضلا عن الثمرات المتعددة من كل نوع وصنف.

ولعلنـا نـلاحـظ الأداء التعبيري الـذى يصـف الصفـاء فى محتـوى النهـر، مـاءً ولبنـا، بـأنه مـرة «غير آسـن» ثـم «لم يتغير طعمـه» ووشـت المفـردات بالمعنـى عن طـريق النفـى، كما أن اللفظين «لذة» و«مصفـى» يؤكـدان المعنى عن طـريق الاثبات. . ثـم تتحاور الألفاظ لتثبـت المعنى وتؤكده.

وصور النعيـم ترق وتشـف كلما ارتقى السامعـون فى درجات الـرقى الأخلاقـى. ولقد واكبـت الآيات أنـواع المخاطبين وتنـوع حالاتهم التـى تتكرر كنماذج بشرية.

«والله الـذى خلـق البشر أعلـم بمـن خلـق. وأعـرف بما يـؤثـر فى قلوبهم، وما يصلح لتربيتهم، ثـم ما يصلح لنعيمهم ولعذابهم، والبشر صنـوف، والنفـوس ألـوان، والطبـائع شتـى، تلتقـى كلهـا فى فطـرة الإنسان، ثم تختلف وتتنوع بحسب كـل إنسان، ومن ثم فصل الله ألوان النعيم والعذاب، وصنوف المتاع والآلام وفق علمه المطلق بالعباد)[1].

وهذا هو الهدف الدينى الذى يترقرق خلف مشاهد الجنة.

●● والجنة هى ملاذ الآمنين المتقين.

ولقـد وردت صـورة الجنـة فى آيـات قـرآنيـة بما يصفهـا بـالهدوء والسكينة.

---

(١) الظلال جـ٦ ص ٣٢٩١.

قال تعالى فى سورة الواقعة : ﴿**لايسمعون فيها لغواً ولا تأثيما إلا قيلا سلاماً سلاماً**﴾ . فالجنة مكان مبرأ من كل ما يسىء أو يجرح المشاعر، إنه مكان يصون النفس ويحافظ على الكرامة ويحقق الاحترام . إنه ليس المكان الجميل فحسب وإنما هو المكان النظيف . فلا يصل إلى أسماع أهل الجنة كلام فاحش أو لفظ نابٍ ، ومن ثم فلا ارتكاب للإثم ماداموا لايقولون أو ينطقون فاحشاً من القول أو هذراً من الحديث . وينحصر القول والحديث فى إشاعة التحية الجالبة للمسرة والمودة ، فكل واحد يلقى السلام على أخيه ، فيفشو السلام ويسود الإلف .

وهذا تصوير نفسى جميل حيث تعطى الآية دلالة للشعور الداخلى الذى يجعل النفس تشعر بالسكينة والهدوء ، وتُقْبل على التمتع فى شوق ورضى وإحساس باللذة لا يكدره كدر ولا تشوبه شائبة . . ومن ثم ورد التكرار ليكرس هذا المعنى النفسى الجميل ، ولتصبح حياتهم سلاماً وليشع فى جنبات الجنة السلام حتى ليضحى الجو ناعما آمنا والسلام يبسط أجنحته وينشر عطره الذى يشمل النفس والمكان معاً .

وقال تعالى فى سورة مريم : ﴿**لايسمعون فيها لغوا إلا سلاماً ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا**﴾ «فلا فضول فى الحديث ، ولا ضجة ولا جدال ، إنما يسمع فيها صوت واحد يناسب هذا الجو الحالم الراضى . . هو صوت السلام»(١) .

ويكلل هذا الجو الناعم سماعهم للملائكة يسلمون عليهم على وجه التحية والتكريم . ولقد تمازج التعبير عن الرزق مع هذا الجو الناعم

---

(١) مشاهد القيامة ١١٩ .

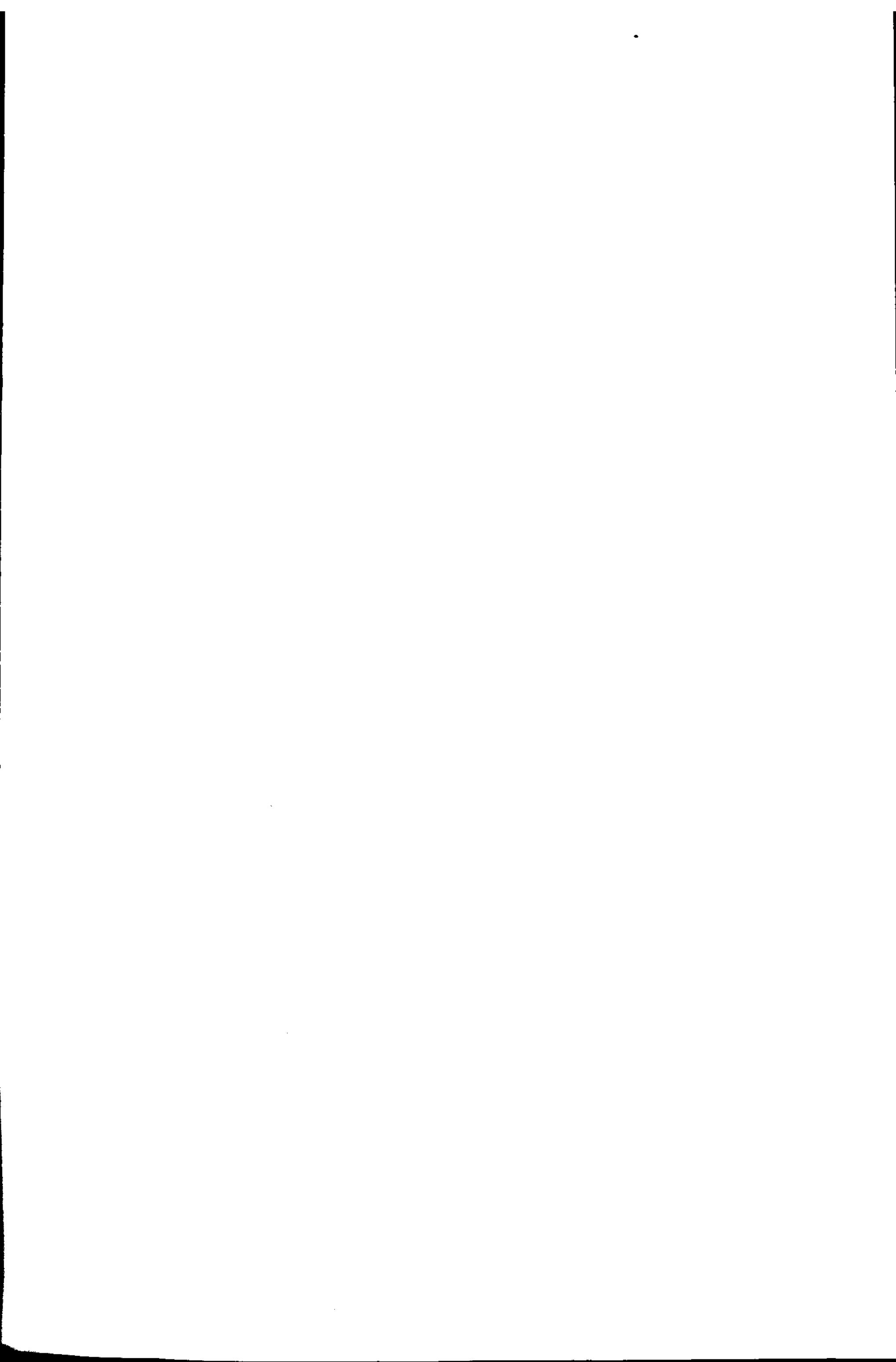
الرضـيِ فالرزق فى الجنة مكفـول لا يحتاج الى كدّ، ولا يشغـل النفس، ولا يقلقها ولا يجعل للخوف سبيلا إلى القلوب .

إنه أمان نفسى مكفول للنفس فى سكينتها ورغباتها معاً .

وهـذا البعـد الصوتـى الجميـل — مـن أبعاد الصـورة الكليـة — ينسـاب فى جنبـات المكـان فى إيقـاع محبـب، يـريـح النفـس ويـرطـب الوجدان .

الفصل الخامس :

الأداء التصـــويرى
فى
الحقائق والأحكام



. . لمسنا فيما سبق كيف أن التصوير الفنى بدلالاته المصاحبة يعتبر أحد الأدوات التعبيرية المميزة فى القرآن الكريم، فالتصوير يحيل المعانى المجردة والذهنية، والمشاهد، والمواقف، والوجدان. . إلى صور تنبض بالحركة بظلالها الحركية والصوتية واللونية، فتبدو شاخصة مُحسة — مؤثرة فى النفس، بالغة غاية التأثير. .

والقرآن فى مجاله التصويرى معجز بكل المقاييس الفنية. وهو فى هذا المجال متفرد فى بابه. . من حيث الأداء اللفظى والخيالى. . مما يجعلنا نقرر فى وضوح لا لَبْس فيه أنه معجزة أدبية خارقة تحدى بها العرب قديما وحديثا وإلى يوم الدين.

قال تعالى: ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**﴾[1].

. . ولكننا يجب أن نقرر أيضا أن مجالات الإعجاز ليست مقصورة على هذا الجانب التصويرى الإبداعى. . (والقول بأن القرآن معجزة أدبية قبل كل شىء، يجعل القرآن كتاب أدب ولغة وبلاغة، فى حين أنه كتاب تشريع وتعليم وتنظيم ومن الطبيعى أن يكون، وهو كلام خالق البشر وآدابهم ولغاتهم وبلاغاتهم، معجزاً فى أسلوبه وصياغة تراكيبه وتعابيره وفوق كل التعابير والتراكيب)[2].

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨٨.

(٢) القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته جـ ٤ ص ٧٧.

. . والقرآن الكريم كلٌّ فى إعجازه ليس فيه جزء أبلغ من جُزء ، أو أبين . . ومن ثم فإن من يعتبرون أن التعبير بالتصوير المجازى أبلغ من التعبير بالحقائق قد جانبهم الصواب . . إذ ربما ينطبق ذلك على مجالات اللإداع البشرى . نثراً وشعراً ، فكرا وأدبا .

أما القرآن ، فلقد بلغ أقصى درجات البلاغة فى الأداء التعبيرى ، سواء جاء ذلك عن طريق التصوير أو جاء عن طريق التعبير بالحقيقة .

والحقيقة هى ماتدل عليه الألفاظ فيما وضعت له من غير خروج إلى مجاز أو تشبيه . .

والحقيقة تستعمل فى القرآن فى مواضع كثيرة كالأحكام الشرعية التى تحتاج إلى أن تكون الكلمة ذات دلالة محددة ليتم التعريف بالأحكام كاملا . كما تأتى فى مجال الاستدلال القرآنى على وحدانية الله بالنظر فى الكون وآيات الله فيه .

وإن بلاغة الحقائق التى تذكر من غير استعانة بمجاز أو تشبيه لا تقل عن المواضع التى كان فيها . . تشبيه أو مجاز.

يقول الباقلانى (إن عجيب نظمه ، وبَديع تأليفه لا يتفاوت ، ولا يتباين ، على ما يتصرف فيه من الوجوه التى يتصرف فيها من قصص ، ومواعظ ، وحكم وأحكام ، وإعذار وإنذار ، ووعد ووعيد ، وتبشير وتخويف ، وأوصاف ، وتعليم أخلاق كريمة ، وشيم رفيعة ، وسير مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها)[1] . . فلا مزية للتعبير بالتصوير الفنى مادام التعبير بالحقيقة ينهض بأداء المعنى دون نقصان . .

---

(١) اعجاز القرآن . الباقلانى : : تحقيق السيد صقر ص ٣٦ .

وعلماء البلاغة يرون جمالية المجاز أبلغ من الحقيقة . . فى تأدية المعنى . . ولكن إذا كان التعبير بالحقيقة ينهض بأداء المعنى كاملاً فلا مزية للتعبير بالمجاز أو بالصورة — فالحقيقة تنافس المجاز، ولكلٍّ وسيلته وأداته .

والقرآن الكريم — وهو المعجزة الخالدة والحجة الدامغة فى الفصاحة والبلاغة وجماليات الأداء التصويرى — قد حفل بالحقائق وعبر بها فى عدد ضخم من الآيات .

واشتمال القرآن على الحقيقة غير منكور (ولو كان التعبير بالحقيقة أقل بلاغة من التعبير بالمجاز لخلا القرآن كلية من الحقيقة ، وفضل التعبير بالمجاز فى جميع المواقف والأحوال ، فى تشريعه وتعليمه وترغيبه ، ولسار على نمط واحد من التخييل والتأويل لكى يترك أثره الذى لا يتركه التعبير المجرد الدقيق)[1] .

وفى الحقيقة فإن آيات القرآن تبرز الحقائق فى قيمة تأثيرية لا تقل عن بلاغة التصوير المجازى . فالبلاغة قد تقتضى التوضيح والتحديد كما قد تدعو إلى التأكيد أو الوفاء بالمعنى عن طريق الإشارة أو الرمز، ولكل موقف ما يناسبه من الأداء ، عن طريق الحقيقة أو التصوير، بحيث لا يغنى أحدهما عن الآخر فى نقل المعنى .

يقول الباقلانى (وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه على حدٍّ واحد ، فى حسن النظم وبديع التأليف والوصف ، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العلا . ولا إسفاف فيه إلى المرتبة

---

(١) القرآن والصورة البيانية ص ١٢٥ .

الدنيا)[1]

ولنأخذ نموذجاً قرآنيا وردت فيه الأحكام مجردة فى أداء تعبيرى حقيقى .

● قال تعالى : ﴿الزَّانية والزانى فاجلدوا كلَّ واحد منهما مائة جلدة ، ولاتأخذكم بهما رأفة فى دين الله إنْ كنتُم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين * الزانى لاينكحُ إلا زانيةً أو مشركة ، والزانية لاينكحها إلا زانٍ أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين * والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون * إلاَّ الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإنَّ الله غفور رحيم * والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين * والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين * ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنَّه لمن الكاذبين * والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين * ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم﴾[2] .

الآيات القرآنية الكريمة تدور حول محور هام وواضح وهو غرس القيم الأخلاقية فى نفوس المسلمين . . وهو محور تربوى يخاطب النفس المسلمة خطابا تربويا إسلاميا يهدف منه إلى تشكيل النفس المسلمة تشكيلا إيمانيا خالصا ومبرءاً من الشوائب ، ومن ثم تتدرج الأحكام حتى تصل من الشدة الى حدِّ الرجم . .

---

(١) إعجاز القرآن ص ٣٧ الباقلانى .

(٢) سورة النور الآيات ٢ — ١٠ .

إن حدّ الزنا حكم شرعى، فالجلد للبكر من الرجال أو النساء . . ومعنى البكر هنا مَنْ لم يحصن بالزواج . . ولقد ثبت الجلد بالقرآن . والرجم للمحصن من الرجال أو النساء . ولقد ثبت الرجم بالسنّة .

والآيات تتناول حد الجلد . . وتتشدد فى تنفيذه دون هوادة، وتطالب بعدم تعطيل الحد فى الجلد أو الترفق فيه، فجريمة الزنا من الشناعة بحيث لا يكون لرحمة مجال فيها . ويجب إقامة الحدّ فى مشهد عام تحضره جماعة المؤمنين ليكون أبلغ فى الزجر وأوجع فى الروع . فإن الفضيحة قد تنكل أكثر مما ينكل التعذيب .

وتلتفت الآيات إلى موقف تشريعى آخر مرتبط بجريمة الزنا . وهو حكم يرتبط بتكوين الحياة الزوجية عن طريق الزنا . فالزانى لا يحق له الزواج من المؤمنة العفيفة . ذلك أن المشترك الدينى والخلقى إن صح التعبير غير متوفر، وهو أساس هام فى الإسلام لصلاح الأسرة المسلمة . وإنما لا يقع الزانى ولا يتزوج إلا بزانية مثله أو بمشركة، زيادة فى الخسة والدناءة وابتعاداً عن طريق الحق القويم . والزانية لا يحق أن يتزوج بها المؤمن العفيف وإنما يتزوجها من يلائم طبعها خسة ودناءة وقبحا .

فالنفوس الطاهرة تأبى الزواج من النفوس الفاجرة الفاسقة .

(قال الامام الفخر: من أحسن ما قيل فى تفسير هذه الآية . إن الفاسق الخبيث لا يرغب فى نكاح الصوالح من النساء، وإنما يرغب فى فاسقة خبيثة مثله، أو فى مشركة . والفاسقة الخبيثة لا يرغب فى نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها . وإنما يرغب فيها من هو من جنسها من الفسقة والمشركين)[1] .

---

(١) صفوة التفاسير جـ ٢ ص ٣٢٦ .

فالآيـة الكريمة تـوضح لنا طبيعة المؤمـن العفيف فهى تفيـد (نفور طبع المؤمن من نكـاح الزانية ونفور طبع المؤمنة من نكـاح الزانى واستبعاد وقوع هذا الرباط بلفظ التحريم الدال على شدة الاستبعاد . ﴿**وحرم ذلك على المؤمنين**﴾ . وبذلك تقطـع الوشائج التى تربط هـذا الصنف المدنس من الناس بالجماعة المسلمة الطاهرة النظيفة)[١] .

والإسلام وهـو يحدد هذه العقـوبات يحارب الحيـوانية التـى لا تفرق بين جسد وجسد ، أو لا تهدف الى إقـامة حياة أسرية مشتركة ، وهـو يدعو إلى أن تقوم العلاقات الجنسية على أساس من المشـاعر الإنسانية الرقيقة . فالزنا نكسة حيوانية وردة إلى الغرائز المتوحشة ، يطيح بكل القيم والثوابت الدينية . فـالإسلام ينظم هذه الدوافـع الغريزية الفطـرية . ويعلو بها على المستوى الحيوانـى . ومن ثم جاء التشديـد فى عقوبة الزنا (لـدفع النكسة الحيوانية عن الفطـرة البشرية ووقاية الآداب الانسانية التـى تجمعت حول الجنس ، والمحـافظة على أهداف الحياة العليـا من الحياة الزوجيـة المشتركة القائمة على أساس الدوام والامتداد)[٢] .

ومن جماليـات الأداء القرآنى أن الـزانية قدمـت على الزانى ثـم قدّم الزانى عليهـا مرة أخرى . . وهذا التقـديم والتأخير يحمل دلالـة لها معنى مصـاحب لكـل منهما ، فالمرأة هـى أداة الإغـراء ومبعثه ومـن ثم جـاءت مقدمة ، على حين تأخرت فى السياق لأنها وردت فى مجال النكاح والرجل أصل فيه . .

يقول الزمخشرى (والمرأة هى المادة التى منهـا نشأت الجناية ، لأنها لو

---

(١) الظلال جـ ٤ ص ٢٤٨٨ .

(٢) الظلال جـ ٤ ص ٣٤٨٩ .

لم تطمع الرجل، ولم تومض له. ولم تمكنه، لم يطمع ولم يتمكن. فلما كانت أصلاً.. بدىء بذكرها. وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح، والرجل أصل فيه، لأنه هو الراغب والخاطب ومنه يبدأ الطلب)[1].

.. ولقد تضمنت الآيات حدَّ القذف.

والإسلام لا يعتمد العقوبة الرادعة وحدها وسيلة لحياة أسرية نظيفة قائمة على الخلق الاسلامى بل يعتمد الضمانات الوقائية المساعدة والداعية إلى الطهارة والتطهر.

فبعد أن حددت الآيات عقوبة الزنا، وجعلت الزناة منبوذين فى المجتمع، تطرقت إلى حدّ القذف ووصفت له قوانينه ومواصفاته الشرعية حفاظاً على كرامة الإنسان من أن تهدر بفعل حقد حاقد، أو إشاعة كاذب.

فالذين يقذفون المحصنات العفيفات المؤمنات بالزنا دون أن يؤيدوا قذفهم بأربعة شهود عدل يشهدون بارتكاب الفاحشة، فالحد الشرعى الواجب على كل منهم أن يجلد ثمانين جلدة، فهم يستحقون هذا العقاب لكذبهم وخوضهم فى أعراض الناس بالبهتان. ولزيادة تحقير هؤلاء أكدت الآية على عدم قبول شهادة هؤلاء.. لأنهم فاسقون خارجون عن طاعة الله.

قال ابن كثير: (أوجب تعالى على القاذف إذا لم يقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام: أحدهما أن يجلد ثمانين جلدة. الثانى: أن تردَّ شهادته أبدا. الثالث: أن يكون فاسقاً ليس بعدل لا عند الله ولا عند

---

(١) الكشاف جـ٣ ص ٦٢.

الناس)[1].

والذين يتوبون ويرجعون إلى الحق ويندمون على مافعلوا من اقتراف الذنب يُرَدّ إليهم اعتبارهم وتقبل شهادتهم.

ولقد شدد القرآن فى عقوبة القذف فجعلها قريبة من عقوبة الزنا.. فشيوع الاتهام بلا دليل مجلبة للآلام التى تصيب الحرائر والشرفاء معا. ومدعاة للوقوع فى الإثم. وسببا فى افتقاد الطمأنينة..

إن ترك الألسنة تلقى التهم بلا دليل يترك المجال فسيحا لمن شاء أن يقذف، فتصبح الجماعة وتمسى وأعراضها مجرّحة وسمعتها ملوثة. والشك يمرح فى كل بيت ويتغلغل إلى كل نفس.. ومن ثم جاءت العقوبة بمقدار هذا الهول النفسى الناتج عن جريمة القذف.

.. أما فى قذف الرجل لامرأته فالوضع يختلف..

فالرجل قد يقذف امرأته لأمر رابه فيسأل عما شاهده وقد لا يكون المواقعة فيرجع عن باقى الشهادات ولا يكون هذا قذفا يستوجب الحد لأن الشهادات لم تتم فإذا أتمها وسكتت المرأة رجمت وإذا حلفت درأت عن نفسها الحد ثم هو قد يكون كاذبا فالزوج القاذف يشهد أربع شهادات — تقوم مقام الشهداء الأربعة فى حد القذف — إنه من الصادقين فى اتهامه زوجته بالزنا. ثم يحلف فى الخامسة بأن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فى قذفه لها.. ويدفع عن الزوجة أن تحلف أربع مرات إنه لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنا، وتحلف فى الخامسة بأن غضب الله عليها إن كان من الصادقين فى قذفه.

---

(١) مختصر ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٣.

ـوالآيات الكريمـة فيها تيسير على الأزواج يناسب دقـة الحالة وحرج الموقف ومـن ثم كـان التعقيب، بأن ذلـك فضل مـن الله، وبأنـه تواب يقبل التوبة بعد مقارفة الذنوب.

●● هذه الآيات الكريمات التى تناولت حد الزنا ثم حد القذف العام وحد القذف الخاص، وردت خالية مـن التصوير الذى يعتمد على المجاز ورسـم الصورة الحسية ومـع ذلك فلقد بلغـت من البلاغـة والبيان وتصوير الحقيقة حداً عاليا من الإعجـاز.. فالتآلف بين الألفاظ والمعانى تآلـف ثابت ومتواصـل. فكل مفردة قـرآنية تتناول حكما، تومـىء إلى ما بعدها وتوضح الهدف من المعنى المراد.. وبيان التعليل.

فمفـردة الزانـى والزانيـة.. تؤكـد الجرم الأخلاقـى فى ظل تشريـع إسلامـى. وتوحـى بظلال مـن التداعـى التاريخى المرفـوض فى الجاهلية حين كان الأمر معروفاً ومسلما به — حتـى أن المرأة كان يدخل عليها أكثر من رجل — ثم تحدد هى لمن يكون وليدها.. فجاء الاسلام ووضع الحد لهذه الجريمـة.. وورود اللفـظ بعـد مفتتـح السـورة الـدال على الآيـات البينـات التى وردت بها، دليـل على أهميـة الفعـل وتجريمه ووضـع الحد الملائم له.

.. كما يـدل اللفظـان كما يقـول الـزمخشرى على الجنسين المنـافيين لجنس العفيف والعفيفة ممـا يوحى بالحفاظ على هذه العفـة من أن تدنس أو تختلط معالمها..

وجاءت مفـردة «الجلد» أمـراً واجب التنفيـذ، فالـرجل يجلـد ليس عليـه إلا إزاره.. وكذلـك المرأة. ليكون الحد مـوجعـا.. ويشعر الجِلـد الحى. الـذى نعـم بلذة الفِسـقْ. بحـدة الألم وقسـوته. فتصبح اللـذة

مصحوبة بألم شديد بدنى ثم نفسى مما يثير النفور منها عندما يتصور الواقع فى الخطأ مرارة العقاب . .

ولأن الجريمة شنعاء تؤدى إلى الفساد وتدعو إلى الحيوانية جاء النهى فى الآية مصحوبا بتنفيذ الأمر «فاجلدوا» . . فالنهى يدعو إلى عدم الرأفة . . ويعنى النهى فى معناه العميق إلى التصلب والتشدد فى تنفيذ حدود الله . ثم يعود الأمر مرة أخرى ليطالب بمشاهدة الجماعة لتنفيذ الحد لما فيه من تشهير بالفاعل ، ولما له من ردع وزجر لغيره . . ثم تأتى المفردة القرآنية [حرّم] لبيان تحريم الزواج من الزانى أو الزانية لما يتصف به كل منهما من الفسق والفجور، وبُنى الفعل للمجهول لبيان إسناد أمره إلى الله سبحانه ، بحيث لا يجب المراجعة فيه بل التصلب فى تنفيذه . .

● عن عائشة رضى الله عنها أن الرجل إذا زنى بامرأة ليس له أن يتزوجها .

ويتضح لنا الجانب الآخر فى تصوير القيم الأخلاقية الداعية الى حفظ الكرامة ومراعاة العفة والبعد عن التجريح فى القول . . وكشف لنا اللفظ القرآنى هذا المعنى بلفظين . . هما (يرمون المحصنات) . .

فالمحصنات هن العفيفات . وسميت العفيفة محصنة لأنها منعت نفسها عن القبح . . ودلالة الاسم تشى بالتحصن المنيع . . ومن حروفه جاء الحصن المكين المانع . . وتصوَّر امرأة قد اتخذت من النبل والعفة والشرف حصناً لها . تستكن وراءه وتحمى نفسها وشرفها به . .

فكيف ينال الفاجر من هذا الحصن : — لابد أنه ، من حقده ، ومن نفسه المريضة — يحاول محاولات مستميتة ليخترق هذا الحصن —

حتى يصل الى قلبه فيدميه . . وكـأنها نحن أمام صورة حِصن منيع يحاول أن يصل إليـه انسان بشتـى الطرق فحين يعجز عـن تسلقه ، أو الـدخول فيه ، أو الالتفاف حوله . يلجأ إلى رميه بالحجارة أو وسائل أخرى . .

وكـذلك الفـاسق الـذى يحاول بنفسـه المريضة ، أن يصـل الى المرأة العفيفة فتتكسر محاولاته ، وتطيش سهام إغراءاتـه ومحاولاته ، فلا يبقى له إلا أن يقذفها نكالاً وحقداً . . إنها صورة تعبيرية بالغة الجمال .

ومـن ثم جـاء لفظ «الـرمى» . . بيـانا لحالـة الفاسـق الذي يتهـم العفيفة ، وهـى حالـة نفسية فى المقـام الاول . . والتنظيم لابـد أن يعالـج حالات النفس هذه فى مرضها وفسقها . ومن ثم جاء القذف بتعبير الرمى لما فيه من كشف لحالة الترصد التى يريـدها الرامى . . وحالة الغيظ التى تعتوره . . فيرمى قذفه لعله ينال منها بعدما عجز فى الحقيقة . .

فكأن الكلمـة المقذوفة فى حـق العفيفة حجرٌ صلـدٌ يخدش ويؤذى ويميت . . وهذا فى الحقيقـة وارد . . ولعلنا نذكر فى مجال حـديث الإفك كيف كانـت حالة السيدة عـائشة— حتى كان الموت أحـب إليها وذلك من شدة الآلام التى عانتها فى هذا الموقف العصيب .

ولننظر الى مفردة قرآنية أخرى وهـى «يدرأ» . . ومعناها . . يدفع . . ولننظر إلى حـركة الرمـى ، ثم إلى حركـة الدفـع اتقاءً له . . فنتصـور صورة حيـة لامرأة عفيفـة ، تمتد يـداهـا فى حرص بـالـغ لتتلقى هـذه الرميـات وتدفعها عنها حتى لا تُصيبها بأذى أو بمكروه نفسى أو اجتماعى .

فثمة حـركتان متبـادلتان حـركة الـرمى ، وحـركة الـدفع . . وكلتـا الحركتين تشيان بنفسية الرامى والمدافع على حدٍّ سواء . .

ولأن الكلمة / الرمى . . شديدة الوقع ، ولأنها قد تقذف باستهتار ولا مبالاة كان العقاب الصارم الذى شرعه القرآن . . حتى يظل اللسان عفيفاً وحتى تظل المحصنة خلف حصن العفة لا يؤذيها حاقد أو فاسق . .

. . إن التآلف بين الألفاظ والمعانى . من ملامح إعجاز الأداء التعبيرى فى القرآن . . (فإذا وجدت الألفاظ وفق المعنى ، والمعانى وفقها ، لا يفضل أحدهما على الآخر ، فالبراعة أظهر والفصاحة أتم)[1] .

ومن ثم فإن ماورد فى الأداء القرآنى فى مجال التعبير عن الحقائق والأحكام بعد فى قمة البلاغة بالرغم من خلوه من المجازات أو الصور البديعة ، ذلك لان التعبير القرآنى يميل الى وضع اللفظ فى معناه الحقيقى لأننا فى مجال تشريع وتنظيم وبناء مجتمع دينى قائم على الشريعة وأحكامها .

يقول الباقلانى فى هذا المجال : مجال ارتباط الأحكام بالألفاظ البديعة المعبرة ، والتى هى إحدى مجالات الإعجاز فى ارتباطها بالمعانى .

(. . إن المعانى التى تضمنها فى أصل وضع الشريعة والاحكام والاحتجاجات فى أصل الدين ، والرد على الملحدين ، على تلك الألفاظ البديعة ، وموافقة بعضها بعضا فى اللطف والبراعة ، مما يتعذر على البشر ويمتنع)[2] .

●● ونتذكر نموذجاً آخر لبعض آيات الأحكام ، التى ترد على الحقيقة مع التأكيد على أن القرآن كتاب الله لا تتفاوت عباراته ، فلا فرق

---

(١) اعجاز القرآن ص ٤٢ .

(٢) نفسه ص ٤٢ .

فى البلاغة بين ما جاء منه حقيقة أو ما جاء عن طريق التصور والمجاز.

قال تعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلاَّ ما قد سلف، إنَّه كان فاحشةً ومقتا وساء سبيلا * حرّمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبناتُ الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيماً * والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم، كتاب الله عليكم، وأحِلَّ لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين، فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضةً ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليما حكيما * ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض، فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان فإذا أحصِنّ فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشى العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم﴾[1].

الآيات القرآنية وردت فى سياق المنهج القرآنى الداعى إلى تنظيم المجتمع المسلم واستنقاذه من رواسب الجاهلية. وذلك بتطهيره من الفاحشة واستنقاذ المرأة مما كانت ترزح تحته من ظلم وعنت.

(١) سورة النساء الآيات ٢٢ — ٢٥.

فـأول الأحكام التـى وردت فى الآيـات : تحريـم الزواج مـن زوجـة الأب ، لما فيـه من فحـش وفساد ، فهـى تعتبرمن جـانبٍ كـالام ، كما أن الأمر يستـدعى شعـوراً عدائيا بين الأزواج . ممـا يؤدى إلى كـراهية الأب ، فضلا عن أن المرأة تصبح إرثا للولد مما يهبط بمكانتها .

ومن ثـم جاء التشديـد على تحريم هذا الفعـل الذى كان شـائعاً فى الجاهلية . إنه أحد الرواسب الجاهلية المقيتة . .

ثم بينت الآيات المحرمات من النساء . .

فمنهن المحرمـات بالنسب كالأمهـات والبنات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت .

ومنهن المحرمات بالرضاعة حيـث أنزل الله الرضاعة منزلة النسب . وقد وضحـت السنة النبوية الحكـم فى هذا الموضع فى قـوله ﷺ . . **(يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب)** . .

ومنهن المحرمـات بالمصاهرة ، كبنات الزوجـات ، أو زوجات الأبناء أو الجمع بين الأختين .

. . إن التحليـل والتحـــريـم مـن شـأن الله وحـــده لأنهما أخـص خصائص الألوهية فلا تحريم ولا تحليل بغيرسلطان من الله . .

وآيات الاحكـام هذه جاءت على الحقيقـة ، حيث لم يستعمـل فيها التصوير أو المجاز . . ومـع ذلك فهى غاية فى الإبداع والإعجـاز، انطلاقا مما ورد ذكـره فى الآيات السابقة مـن تآلف بين اللفـظ والمعنى . . وأن . . كل كلمة تومىء إلى الكلمة التى تليها لبيان الحكمة وإيراد التعليل .

ولقـد بدأت الآيـات بما كان مترسبـا فى الجاهلية مـن عادات مقيتـة

كزواج الابن من زوجة الأب . . ولقد بدأت الآيات بها لما لها من خطر وشأن . . فالابتداء بالتحريم هنا دليل على أهمية الفعل وخطورته فضلا عن قوة التأثير الذى يضمنه . ومن ثم جاء وصف الفعل بصفات قاسية . . حيث وصفته الآيات بأنه (فاحشة ومقت) .

أما أنه فحش فهو ينافى الطبائع السليمة والأخلاق الكريمة . .

وأما أنه مقت فلأنه ممقوت عند الناس ولذلك كان العرب يسمونه (نكاح المقت) . ذلك أن الجاهلية كانت تكرهه .

والمقت هو البغض الشديد لمن تعاطى القبيح .

لقد تآلفت الألفاظ مع المعنى المراد وبينت هول الفعل وحرمته كلية — واستنقذت المرأة من ظلم وقع عليها طويلاً ، وأعادت لها كرامتها ، كما حفظت للأسرة تماسكها ونظامها . .

وقد وردت الأحكام فى تناسق تام وارتباط حميم . . بحيث يدعو الحكم ما وراءه فى تسلسل منتظم . .

(وكان من مقتضى التناسق المعنوى أن تذكر بعد صلات النسب الصلات السببية وهى المصاهرة ، فابتدأ بأمهات الزوجات ، ثم اتجه الذهن . . إلى الربائب ، لأنه إذا ذكرت الأم تطلعت النفس الى ذكر حكم البنت . . ثم ذكر حكمة التحريم وهو أنهن فى حجره وكبناته . . ولما يستدعيه قانون تداعى المعانى أن تذكر زوجات الأبناء . . وهكذا نرى أن المعانى كل واحدة تدعوها السابقة فتلاحقها فى اتساق ونسق جامع)[1] .

ولقد وردت الآيات فى سياق متكامل ، ونغم متآلف ، وصورة عامة

---

(١) القرآن المعجزة الكبرى ص ٢٣٧ .

تتمثـل فى رسـم صورة عـامـة لاسرة مسلمـة متكـاملة، فيهـا التراحـم، والتواصـل والمحبة. . ومـا التشديـد فى التحريـم ومجالاته إلا لإبقـاء هذا التراحم موصولاً فى الأسرة جيلا بعد جيل. .

إن ما اختـص به القرآن من تقـابل بين الحقائق فى البيان وتـوافقه فى العبارات مـن غير منافـرة أو مفاضلـة متحقق وثـابت، كما أن العبـارات اختصت بكمال الاشراق ونوره. .

إن جمال التعبير يشرق دائما، وحلاوة النغم تنسـاب فى النفوس، كما تنطلق الاحكـام إلى العقل والقلب معاً، محملـة بالعظة والعبرة والتـوجيه إلى العدل والرحمة فى بناء النفوس و إقامة أواصر الاسرة على أساس متين.

. . ولعلنا نـلاحظ الإيجاز الكامـل فى قولـه تعالى ﴿**حرِّمـت عليكم أمهاتكم**﴾. . وجاء التحريـم اطلاقا. . ولكن العبـارة تحتوى على مجاز مرسل. . مـن أهدافه الايجاز الذى يصاغ المعنى فيـه بإرادة شىء محذوف يدل عليـه السياق. . فالمراد هنـا هو نكـاح الأمهات. . مما يعنـى قطعية الدلالة. .

كما أن الأداء التعبيرى لجأ إلى الصـورة البيـانية الجزئيـة. . فى قـولـه تعالى ﴿**واللائى دخلتم بهن**﴾. . إذ إن المراد هو الجماع والـوطء. . ولكن الأداء القرآنـى استخدم كلمة «دخلتـم» وتعنى الستر الـذى يستر المرأة مع زوجها. . وفيه إيماء بما يمكن أن يحدث بين الزوج وزوجته. .

ولقد جاءت المفـردة القرآنية فى مجال لا يخدش الحياء ولا يثير الغـريزة فضلا عن الايفاء بالمعنى المراد. . مما يجعل للمفـردة القرآنية اتساقاً خاصاً يتلاءم مع المعنى المراد. . ويتآلف معه.

وكذلك قوله تعالى ﴿وربائبكم اللاتى فى حجوركم﴾ . .

فالـربائب : جمع ربيبة : وهـى بنت المرأة التى تتربـى فى كنف زوج الأم . . والكلمة تحمـل معانى كثيرة ، منهـا التربية ، والملازمة ، ومـداومة العشرة . . وتواصل الألفـة مما يعنى نفوراً تاماً ، وبغضـاً أكيداً . . وتقطعا للمودة لو حدث النكاح من الـربيبة . . لأنها فى هذه الحالة تشبه الابنة فى مكانتها . . وتردف مفردة «حجوركم» هـذا المعنى . . معنى البنوة القائمة على مداومـة التربية والعشرة . . مما يستدعـى أن تعلو المشاعر النبيلـة فوق المشاعـر الغليظة . . يقـول الزمخشرى فى تحليلـه للدلالـة المصاحبـة لمفردة حجـوركم (فـائدته التعليـل للتحـريم وأنهن لاحتضـانكم لهن فى حكـم التقلـب فى حجوركـم إذا دخلتـم بأمهـاتهن ، وتمكَّن بـدخـولكم حكـم الزواج وثبتـت الخلطة والألفـة وجعل الله بينكـم المودة والرحمة ، وكـانت الحال خليقـة بأن تجروا أولادهـن مجرى أولادكـم ، كـأنكم فى العقـد على بناتهن عاقدون على بناتكم)[١] . .

. . إن الأحكـام التشريعيـة وجـه من وجـوه الإعجـاز فى القـرآن ، بسموه فـوق كل تشريع ، وبـأدائه التعبيرى المتآلـف والمتناغم والـواضح الدلالة . .

(فالقـرآن قد أعجز ولايزال بمعـانيه قبل ألفـاظه ، معانيه التـى هى مناسبة لفطرة الناس فيما حدثهم به من عقيدة سهلة ، وشريعة سمحاء ، وفيما استوفته من حقائق الوجود ورب الوجود)[٢] .

قال تعالى : ﴿ما فرّطنا فى الكتاب من شىء﴾ .

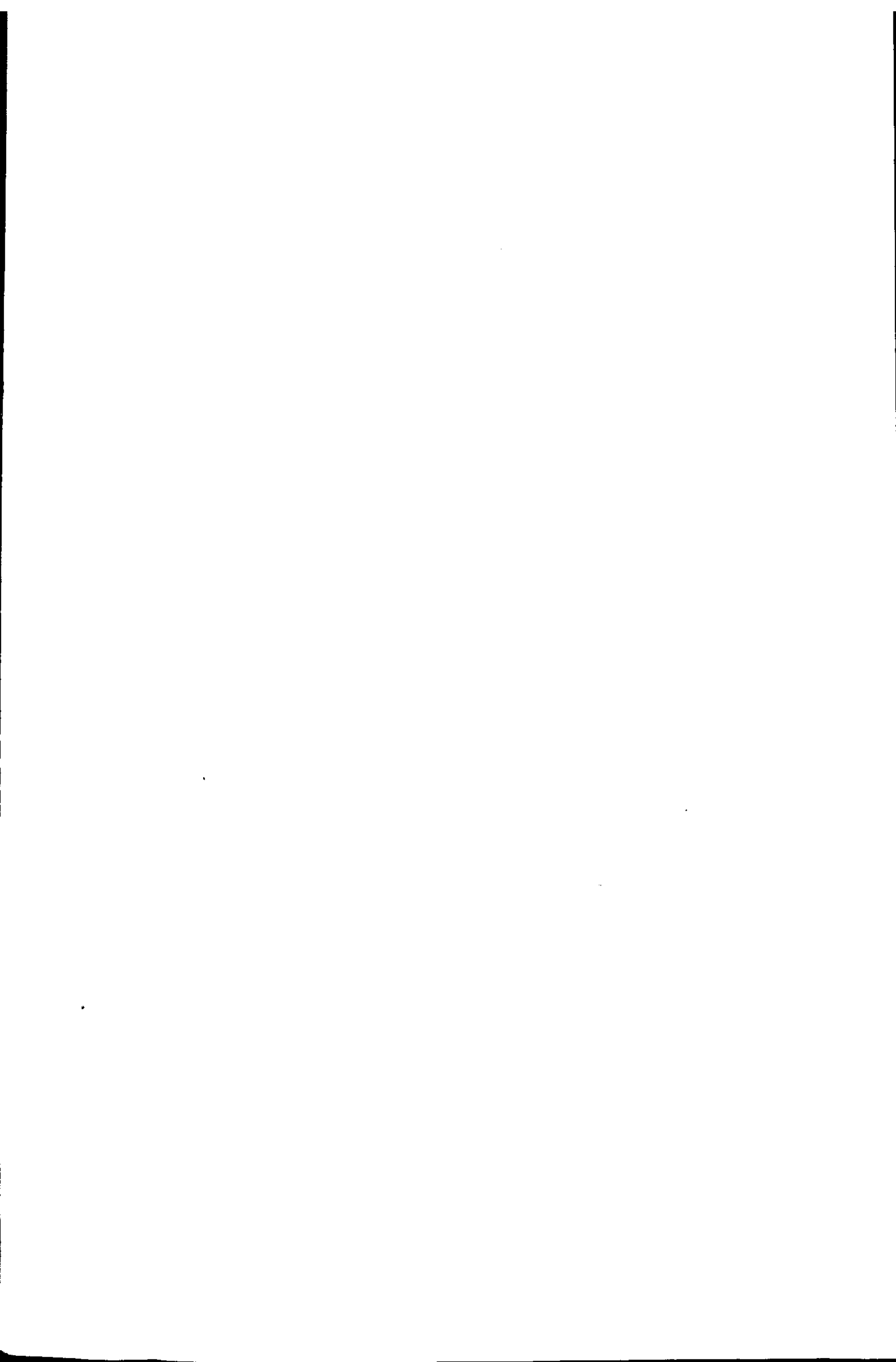
---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٢٦١ .

(٢) القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته جـ ٤ ص ٧٧ ، ٧٨ .

الفصل السادس :

التصوير والإرشادات الغيبية والعلمية



القرآن الكريم هو كلام الله المعجز ولقد لمسنا بعض مظاهر الاعجاز في المجال الاسلوبي من حيث جمال الأداء في اللفظ والمعنى، والروعة والبيان، وجمال التصوير وتنوعه، والنسق التركيبي في الجرس الصوتي والتآلف المعنوي. وفي الحروف والمفردات والتركيب والبيان التصويري. مثله في ذلك مثل الأداء الحقيقي في مجال الشرائع والأحكام.. وعلومه وحكمه، وفي كشف الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلة. فإعجاز القرآن (إنما كان بفصاحة ألفاظه، وروعة بيانه، وأسلوبه الفريد، الذي لا يشابهه فيه أسلوب، لا من نثر، ولا من شعر، ومسحته اللفظية التي تتجلى في نظامه الصوتي وجماله اللغوي وبراعته الفنية)[1]..

إلا أن إعجاز القرآن لا يقتصر على هذا الجانب كما ذكرنا سابقا، بل هناك وجوه أخرى لإعجاز القرآن..

وسنتناول في هذا الجانب موضوعين..

●● الأول: الإخبار عن المغيبات..

ومن هذه المغيبات ما ورد عن الحرب التي ستقع بين الروم والفرس.. وهي أمور وقعت في المستقبل وما كان لأحد أن يعلمها إلا من قبل العليم الحكيم.

قال تعالى: ﴿**الٓمٓ * غُلبت الروم * في أدنى الأرض وهم من بعد غَلبهم سيغلبون * في بضع سنين، لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ، ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر منْ يشاءُ وهو العزيز الرحيم**﴾[2].

سورة الروم مكية، تهدف كطبيعة السور المكية إلى معالجة قضايا

---

(٢) التبيان في علوم القرآن. محمد على الصابوني ص ٩٨.

(٢) سورة الروم الآيات ١ — ٥.

العقيدة الاسلامية المتمثلة فى الوحدانية، والرسالة، والبعث .

ولقد بـدأت السورة بـالحديث عـن حدث غيبـى هذا الحدث أخبر عنه القرآن قبل وقوعه .

والآيـات سبـة وذلـك حين انتصرت فـارس غلى الـروم وكـان بينهما عداء مستحكمللديانة المسيحية على حين تغـوص فارس فى وثنيتها الدينية ولقد كانا يفرضان بطريقة أو بـأخرى سيطرتهما على أطراف الجزيرة العربية فيما يجاورهما من أماكن وتشير الآيات إلى أن الـروم قد انهزمت أمام جيوش فارس وشـاع ال وكان ذلك أثنـاء الجدل الدائر بين المسلمين والمشركين فى مكة حـول الإسلام ولقد وجـد المشركون فى ذلك فـرصة للنيل مـن عقيدة الإسلام ومناسبة للاستعلاء بالشرك وفألا بـإنتصار ملة الكفر وكانوا يقولون فى تيـه وعجب ألم تنتصر الفـرس وهى الـوثنية على الـروم وهم أصحـاب كتاب؟ وتصوروا بعقلهم القاصر وبـوجدانهم المختلط أنهم سيظهرون على المسلمين وسيكون لهم الغلبة وما انتصار فارس إلا إشارة إلى ذلك . .

ولقد أثر ذلـك على المسلمين فاغتموا وحزنوا لهزيمة الـروم وهم أهل كتاب . فنـزلت الآيـة القرآنيـة الكريمـة لتبشر المؤمنين بانتصـار الروم على الفـرس بعد زمـن قليـل فى بضـع سنين وأثارت البشرى بعـض العجـب والـدهشـة . كيــف تنتصر الــروم على الفـــرس وقـد أنهكتهـا الحروب وأضعفتها؟ وكيف تنهزم الفرس وهى الدولة القوية المسيطرة؟ . .

ولم تمض المدة حتى انتصر الـروم وانهزم الفرس وتحققت نبـوءة القرآن وكان ذلك فى السنة الثانية من الهجرة النبوية . .

(قال أبـو السعود: وهـذه الآيات مـن البينات البـاهرة، الشـاهدة

بصحة النبوة، وكون القرآن من عند الله عز وجل، حيث أخبر عن الغيب الذى لا يعلمه إلا العليم الخبير ووقع كما أخبر)[1].

. . والآيات تتضمن إيحاءات تبرز مدلولات تصاحب هذا الحدث الهام . .

وأول هذه الإيحاءات ذلك الترابط بين الشرك والكفر فى كل مكان وزمان أمام دعوة التوحيد والايمان. فلقد اعتبر مشركو مكة أن انتصار الفرس انتصار لهم . . والايحاء الثانى هو إبراز قوة العقيدة فى النفوس وقوة الثقة المطلقة بالله . . ذلك أن التبشير بنصر أهل الكتاب تغلغل إلى النفوس وتمكن فى القلوب حتى أن أبا بكر راهن على النصر . . وكسب الرهان وهذه الثقة هى التى ملأت قلوب المسلمين قوة ويقينا وثباتاً . .

والإيحاء الثالث (هو فى تلك الجملة المعترضة فى مساق الخبر من قول الله سبحانه ﴿**لله الأمر من قبل ومن بعد**﴾ والمسارعة برد الأمر كله لله . . فالنصر والهزيمة وظهور الدول ودثورها، وضعفها وقوتها. شأنه شأن ما يقع فى هذا الكون من أحداث ومن أحوال مردّه كله إلى الله)[2].

ومن ثم يصبح التسليم والاستسلام أقصى ما يملكه لبشر امام قدر الله وما يجريه فى الكون.

● والعقيدة الاسلامية وهى ترد الأمر كله إلى الله لا تعفى البشر من الأخذ بالأسباب وتتضمن الآيات نبوءة أخرى وبشرى طيبة.

تلك النبوءة تشير إلى أن المسلمين سيفرحون بنصر قريب، فى الوقت

---

(١) صفوة التفاسير جـ ٢ ص ٤٧١.

(٢) الظلال جـ ٥ ص ٢٧٥٧.

الذى ينتصر فيه الروم ﴿**ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله**﴾ . . ولقد صدق الله وعده وتحققت النبوءة وذلك حين انتصر المسلمون فى موقعة بدر الكبرى . . وتنسم المسلمون هواء النصر . . والتحم النصران معا على الكفر والشرك . .

قال ابن عباس : كان يوم بدر هزيمة عبدة الأوثان ، وعبدة النيران . يقول الزمخشرى فى تعليقه (وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة ، وأن القرآن من عند الله لأنها إنباء عن علم الغيب الذى لا يعلمه إلا الله)(١) .

●● وفى هذا المجال فإننا يجب أن نؤكد أن الإخبار عن المغيبات اتخذ طريقين : طريق المستقبل . . أى الإخبار عن أمور مستقبلية . . وقد تحقق ذلك جميعا ولقد ذكرنا نموذجاً لذلك . . وطريق الماضى . . أى الإخبار عن غيوب الماضى التى اطلع عليها الرسول ولم يكن له بها علم . مثل القصص القرآنى . .

ولقد وردت آيات قرآنية كثيرة تتضمن المنّ على رسول الله بما جاء حول قصص الأنبياء وأممهم ومواقفهم .

قال تعالى : ﴿**تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر * إن العاقبة للمتقين**﴾(٢) .

والإخبار بالغيب من دلائل الإعجاز . .

(ووجه الإعجاز فى الماضى وقصصه أن النبى ﷺ نشأ أُميّا لا يقرأ ولا يكتب . ولم تكن نشأته بين أهل الكتاب ، حتى يعلم بالتلقين

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ١٩٧ .

(٢) سورة هود الآية ٤٩ .

علمهم . . وكان قومه أميين لا يسُود فيهم علم من أى طريق كان إلا أن يكون علم الفطرة والبيان ، وإرهاف أحاسيسهم بالشعر والكلام البليغ)[1] . .

ونزل القرآن فى هذا الوسط الأمى ، يتحدث عن أمم سابقة ، وأنبياء مضوا فى التاريخ حملوا الرسالة ، ودعوا إلى التوحيد ، وواجهوا أمم الكفر والوثنية . . وأظهر ما حل بالذين كفروا وضلوا . وطالبهم بأن يروا الشواهد والآثار الدالة على ذلك من بقايا الأمم الضالة . .

لقد جاء القرآن بتفصيله الصادق المحكم عن أخبار الرسل والأنبياء . . ولقد صدق القرآن فيما حكاه حول الرسل والرسالات . . فى حين اختلفت الصورة عما ورد فى كتب أهل الكتاب . . من يهودية ونصرانية .

ولنذكر دليلا قرآنيا على هذا الجانب الغيبى الخاص بقصص الأولين . .

قال تعالى : ﴿**ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون * إذ قالت الملائكة يامريم إنَّ الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين * قالت ربّ أنىَّ يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال ، كذلك الله يخلق مايشاء ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كُن فيكون * ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل**﴾[2] .

---

(١) القرآن المعجزة الخالدة ص ٣٣٩ .

(٢) سورة آل عمران الآيات ٤٤ — ٤٨ .

. . الآيات الكـريمات تتناول مـواقف متنـامية لقصـة مريـم وابنها عيسى عليـه السلام . وهـى أمور مغيبة لا يعـرفها الـرسول ﷺ فـدخلت بذلك فى باب الإعجاز بالمغيبات الماضية .

وتبـدأ الآيات بـاسـم الإشارة البعيـد (ذلـك) . . إشارة إلى الموقـف الأول فى القصـة وهو ولادة امـرأة عمران لمريـم . . ونـذرها لعبـادة الله . . وكفالـة زكريا لها . . حتى إذا بلغـت مبلغ النساء انـزوت فى محرابها تتعبد الله . وكـان زكـريـا كلما دخـل عليهـا المحـراب يجد عنـدهـا الطعـام والشراب . . وكان يـدهش لما يـرى وكانـت تجيبه : أن ذلـك رزق من الله ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ .

إن هذا الموقف الذى تنامى مـن لحظة الولادة إلى لحظة الانقطاع إلى العبادة ومـا جرى فيـه . . وحى أوحـى به الله إلى محمـد ﷺ . . وما كـان يعلمـه . . وتشير الآية إلى مـوقفين . . لم يـرد فى كتـب النصارى . . وهـو تسابق سـدنة الهيكل إلى كفالـة مريم . والنص هنـا يشير إلى حادث إلقاء الأقلام لمعرفة من تكون مريم لـه . وكعادة القرآن فى قصصه فإنه لا يفصل الحادث ، وإنما يختار ما يريد لهدف دينى أو عظة تربوية . .

وربما كان هذا الحادث — حادث حركـة رمى الأقلام — من أسرار السدنة التى لا تفشى ولا تباح فجـاءت فى القرآن دليلا على الوحى . ومن ثم فقد ورد أنهم لم يجادلوا فيه .

روى كما جـاء فى الطبرى — أن حنَّة حين ولـدتها لفتهـا فى خـرقـة وحملتها إلى المسجـد — الهيكل — ووضعتهـا عند الاحبـار وهم فى بيـت

(١) الكشاف جـ ١ ص ١٩٠ .

المقدس كالحجبة فى الكعبة فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة . فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم ثم اقترعوا فخرجت فى كفالة زكريا فكفلها .

وتنتقل الآيات إلى موقف قصصى آخر وهو البشارة بمولد المسيح . .

فهاهو جبريل يبشر مريم بمولود يكون بكلمة من الله دون واسطة بشرية . يكون سيداً فى الدنيا والآخرة . . وتجرى المعجزات على يديه طفلا وكهلاً .

يقول الزمخشرى (ومعناه . . يكلم الناس فى هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت من حال الطفولة وحال الكهولة التى يستحكم فيها العقل ويستنبأ فيها الأنبياء)(١) .

. . وتقف مريم مندهشة متعجبة وتتساءل كيف آتى بولد دون زوج ! . . ويأتيها الجواب . . إن أمر الله عظيم لايعجزه شىء فإذا أراد شيئاً حدث دون تأخر . .

ويمضى السياق سارداً صفات عيسى عليه السلام . . إذ تؤكد الآية أن الله أعطاه الكتاب وصواب الرأى وحفظ التوراة والإنجيل . . ثم يجتبيه رسولا إلى بنى إسرائيل . . (لقد بشرت الملائكة مريم بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى بن مريم فتضمنت البشارة نوعه واسمه ونسبه ، وظهر من النسب أن مرجعه إلى أمه ، ثم تضمنت البشارة كذلك صفته ومكانه من ربه . . كما تضمنت معجزة تصاحب مولده . . ولمحة من مستقبله . . وسمته والموكب الذى ينتسب إليه)(٢) . .

---

(١) الظلال جـ ١ ص ٣٩٨ .

(٢) الظلال جـ ١ ص ٣٩٨ .

. . وكشفت الآيـة موقف الفتـاة الحريصة على الشرف والكـرامة فى موقف المفـاجأة المدهشة . . وأبرزت الانفعال الـذى يطغى على الأنثى فى مثل هذا الموقف فاتجهت إلى الله ضارعة أن يفك لها هذا اللغز . .

وحين يـأتى الجواب بـرد الأمـر كلـه إلى الله ، تزول الحيرة ويـذهـب العجب ، ويطمئـن القلب ويفيـد النص أن رسـالة عيسـى كانـت لبنى إسرائيل . ومـن ثم فإن التوراة المشرِّعـة والمنظمة لحياة الجماعـة الإسرائيلية هى كتاب عيسـى عليه السلام ، فضلا عن الإنجيل الـذى تضمن إحياء الروح و إيقاظ الضمير.

● ولقد جاءت القصة فى أسلوب سردى وحـوارى مما أثار الانفعال الوجدانـى فى نفس القارىء ، وتضمنت نقلات فى الزمـان . واختزالاً له . فمرة نحـن أمام مـريم طفلـة ، تحتاج إلى الـرعايـة والكفالـة . ومرة فتـاة ناضجة تتلقى البشارة بميلاد طفل .

وفى المرة الأولى : نقف على حـركة الصراع حـول الكفالـة . . وحدة الانفعـــال ، أو الآراء المتصـــارعـــة . . تكشـــف المفـــردتـــان (ألقـــوا) و(يختصمون) ، تلك الحركة المنفعلة الراغبـة فى فعل الكفالة . كما تكشف رغبات سدنة الهيكل فى الاستئثار بهذا الفعل تقرباً . .

وفى المرة الثانية : نقـف بعد نقلة زمنية أمـام موقف يتسم بـالدهشة والغرابـة والاصطفاء معـا . فمريـم الفتاة المتعبـدة تفاجـأ بملك يبشرهـا بمولد طفل منها . .

وهنـا تنـداح الانفعـالات البشرية المختلطـة والممـزوجـة بين الحيرة والقلـق والخوف . . ويبرز هذا السـؤال كيـف؟ . . ويحمـل السؤالُ كـلَ الانفعالات التى تخضع لها الأنثى فى مثل هذا الموقف . .

ولأن الموقف أنثوى فجاء التعبير (ولم يمسسنى بشر) لـلإيفاء بالمعنى المراد، دون أن يجرح المشـاعـر، أو يتخطـى جماليـة الأداء فى الخطـاب . . وهذا التعبير الكِنَائى . . يحمل دلالات التعفف والتحصن مما يثير فى ذهن مـريم حيرة على حيرة وخـوفاً على خـوف . . ومـن ثم فـإن عبارة القـرآن ﴿**كذلك الله يخلـق ما يشاء**﴾ . . جاءت لترد الأمر كلـه إلى الله . . ولتزيل الحيرة والشك ولتبعد الخوف، ولتهيىء مريم للحظة التلقى . . .

. . ولقد جاء التعبير القرآنى فى قصة يحيى على هذا النحو ﴿**كذلك الله يفعل مـا يشاء**﴾ . . فالآيتـان متشابهتـان فى النظم الأسلـوبى ولكـن الفعل الحقيقى اختلـف : ففى الأول ورد اللفظ (يخلُق) والسيـاق القرآنى يعطى المفردة القرآنية دلالتها وسرها التركيبى . .

. . فخلـق عيسى مـن غير أب إيجاد واختراع جاء على غير مـا يجىء البشر من التقاء بين الـذكر والأنثى، طبيعة الحياة القـائمة على التزاوج بين نـوعين يكمـل بعضهما الآخر. ومـن ثـم فـإن خلـق عيسى لم يـأت عـن الطريـق الطبيعى الذى يستـدعى وجـود الرجل والمرأة . . وعلى هـذا فقد ناسب أن تأتى فى السياق القرآنى مفردة «يخلق» .

يقـول سيـد قطب رحمه الله (إن الله شـاء أن ينشـىء حيـاة على غير مثال . فـأنشأهـا وفق إرادته الطليقـة التى تنشـىء الحياة بنفخـة من روح الله . ندرك آثارها، ونجهل ماهيتها) . . .

ولقد مضـى مألوف النـاس على قاعدة أن للنشـأة الانسانية طـريقاً معـروفاً وهـو طـريـق إلتقاء الـذكـر والأنثـى . . حتى شـاء الله أن يخرق القـاعدة، فتتلقـى الأنثـى . . الأنثى فقـط النفخـة التـى تنشىء الحيـاة ابتداءً .

. . أما فى الآية القرآنية الخاصة بيحيى . . فالأمر يختلف . .

فالزوج والزوجة موجودان . . ولكن فى كل واحد منهما علة . .

فالزوج شيخ كبير هدته الشيخوخة وأضعفته . . إنه زكريا النبى الذى كفل مريم وأخلص لله . .

والزوجة فقدت خصوبة الأنثى الولود إنها عاقر لا تنجب . . إن الأمر يبدو أمام العين البشرية مستحيلا . ولذلك فقد علا السؤال مدهوشاً وحائراً فى قول زكريا . يذكرنا بنفس الدهشة والعجب اللّذيْن صاحبا مريم . .

قال زكريا لربه فى حيرة العبد المؤمن :

﴿قال ربّ أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر، وامرأتى عاقر، قال، كذلك الله يفعل ما يشاء﴾(١) .

إن قصة ولادة يحيى من عجوز عاقر وشيخ قد بلغ من الكبر عتيا شىء خارق للعادة . . ولذلك لاءم اللفظ القرآنى (يفعل) . . السياق العام . . لوجود الزوج والزوجة والعائق فيها . . فناسب أن يأتى الفعل المعجز لوجود أدواته الطبيعية . بخلاف السياق فى قصد مريم وولادة المسيح . . فليس هناك وجود طبيعى للأدوات الفاعلة . . فليس ثمة إلا أنثى بها لاءم الخلق الفعل كله . .

. . ولا يفوتنا أن نذكر أن جميع القصص التى وردت فى القرآن الكريم إنما هى باب من الإخبار عن المغيبات فى الماضى ، وقد أطلع الله ورسوله محمداً ﷺ عليها . . ولم يكن له علم بها . . مما يدل على إعجاز

(١) سورة آل عمران الآية ٤٠ .

القـرآن وأنـه مـن عنـد الله وأنه ليـس مـن كـلام البشر كما ادعـى الكفـرة الجاهلون .

●●●

الثانى : الإشارات العلمية . .

القـرآن الكريـم كتاب الله ودستـور المسلمين فى إقـامة حيـاتهم على أساس من التشريـع الإسلامى المحكم . . وهو يهدى ويـرشد إلى السبيل الحق ، ويشرع من الأحكام ما فيه صلاح الأمة . .

ومع ذلك فثمـة إشارات علمية دقيقة سبق إليهـا القرآن مكتشفات العلـم الحديث . . فلـم تخل آيـاتـه من إشـارات إلى مجالات فى الطبيعـة والطب والنفس والتكوين وغيرها . مما يدل على إعجازه العلمى . .

فمحمـد ﷺ كان أميا ، وقـد نشأت فى بيئـة بعيـدة عـن مظاهـر التحضر والتمدن . مما ينتفـى معه فهم الاشارات العلميـة التى وردت فى القـرآن . . فما جاء فى القـرآن مـن معلومـات علميـة لم تكـن معلومـة فى عصره . . ولم تُكتشـف أسرارها إلا منـذ عهد قـريـب . . مما يـؤكد هـذا الجانب الإعجازى أنه وحى من الله .

يقـول «موريـس بوكـاى ! (وإن القرآن الكـريـم ليس فيـه مسألـة واحدة تناقض العلم الحديث ، بل إن كل ما ورد فيه من أيات وإشارات فى علم الفلك وعلوم الحيوان والنبات ، وعـن التناسب البشرى . . يوافق تمام الموافقـة معطيـات المعارف العصريـة التـى كـانت مجهـولـة فى عصر النزول)[١] .

---

(١) انظر كتاب القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته جـ ٤ وعرض المؤلف الفاضل لكتاب بوكاى .

والقرآن الكريم لا يهدف إلى تقرير حقائق علمية، لأن مقصده الجوهرى دينى، وهو إذ يتحدث عن القدرة الإلهية فإنه يدعو إلى التدبر فى ملكوته. وتتخلل الدعوة الإلهية إشارات علمية.. وهذه الإشارات القرآنية تعد حدثا جديداً فى الوحى، جديراً بالاهتمام.

والقرآن الكريم وهو يشير إلى هذه الإشارات العلمية يشفع كلامه بالتأكيد على منفعته للناس..

ففى قوله تعالى: ﴿**ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً * وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً**﴾[1].

وفى قوله تعالى: ﴿**وبنينا فوقكم سبعاً شداداً * وجعلنا سراجاً وهاجا**﴾[2].

فى هاتين الآيتين وصف الله القمر بأنه منير والشمس بأنها سراج وهاج (ومعلوم أن الشمس نجم ينتج بفعل احتراقه الداخلى حرارة شديدة وضوءاً، وأن القمر الذى لا يضىء بنفسه يعكس الضوء الذى يتلقاه من الشمس.. وليس فى القرآن شىء يناقض ما نعرفه حول هذين الجرمين السماويين)[3].

والضياء والطاقة عاملان لازمان لحياة الإنسان والنبات والحيوان. فالشمس مهدت بإذن الله للحياة على الارض، فجعلتها صالحة لأن يعيش فوقها الكائن الحى.. وبالشمس تتم الدورة المائية المعروفة.. مما يؤكد ارتباط الاشارات العلمية بما ينفع الإنسان فى تنقله برا وبحرا،

---

(٢) سورة نوح الآيات ١٦ — ١٥.

(٣) سورة النبأ الآيات ١٢ — ١٣.

(٣) القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته جـ ٤ ص ١٣٩..

واهتدائه ومعرفته عدد السنين والحساب .

●● ولننظر الى السياق القرآنى الذى وردت فيه الآيتان فى سورة نوح فالسياق يشير إلى نعم الله سبحانه على خلقه ، ويدعو إلى التدبر فى آثار القدرة الإلهية والرحمة الربانية فى الكون .

●● قال تعالى : ﴿**مالكم لاترجون لله وقاراً * وقد خلقكم أطواراً * ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا * وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجا * والله أنبتكم من الأرض نباتا * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً * والله جعل لكم الأرض بساطاً * لتسلكوا منها سبلا فجاجاً**﴾[1] .

● الآيات تذكير بنعم الله . . وقد وردت فى قصة نوح . .

وبدأت الآيات بأسلوب يتضمن التوبيخ . . فى تعجب من أمر هؤلاء المعاندين الذين دعاهم نبى الله نوح إلى التوحيد والهداية فواجهوه بالعناد والكفر . فجاء التساؤل المصحوب بالدهشة والتعجب ليبين أن هؤلاء القوم لايخافون عظمة الله وسلطانه : قال ابن عباس فى معنى الآية : أى مالكم لاتعظمون الله حق عظمته :

● إن قصة نوح تجربة من تجارب الدعوة ، وشوط من أشواط المعركة الخالدة بين التوحيد والكفر . كما أنها تكشف عن عناية الله ورحمته بالإنسان ، وكذلك الجهد المضنى من حملة الرسالة فى تبصير البشرية الضالة .

وهذه التجربة المريرة التى مرَّ بها نوح مع قومه تُعْرَضُ على رسول الله

---

(١) سورة نوح الآيات ١٣ — ٢٠ .

ﷺ فيرى فيها صورة مـن الكفاح لإقرار الحق من جانـب، وصورة العناد من جـانب آخـر. . وتحمل البشرى للمـؤمنين ممثلة فى عنـاية الله بـالقلة المؤمنة، كما تحمل الإنذار بالمصير السيىء للمكذبين الضالين. .

. . والآيات فصل فى قصة نوح مع قومـه. . وهى توجه أنظار القوم إلى آيات الله ونعمه فى النفس والكون المحيط بهم.

والآية الأولى: التـى ذكرهـم بها نـوح تتضمـن قولـه تعـالى ﴿**وقد خلقكم أطـواراً**﴾ ومقصـود الأطوار هـو تطور خلـق الجنين من نطفـة إلى علقة إلى مضغة الى هيكل الى خلق كامل. .

وهذه المراحل التكـوينية للإنسان وردت مجملـة فى الآية — ولكنها جاءت مفصلـة فى آيات كثيرة. . وفى هذا الإجمال والتفصيـل ما يشير إلى الحقائق العلمية التى أكدها العلم الحديـث فى مختبراته وبوسائله العلمية الدقيقة. .

قال تعالى: ﴿**فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق**﴾[١]. والماء الدافق هو المنى. . والمنى يحمل مـلايين الحيوانات السابحة فيه. . وبين هـذه الملايين. . يـدور سبـاق رهيـب إلى البـويضـة الأنثـويـة للقاحها. . ولا يصـل إليها إلا حيوان منوى يعلق بها. . ومـن ثم جاءت المرحلة الأولى — النطفة، ثم يخرج من النطفة (العلق). . ذلك الحيوان المنوى الـذى يعلـق ببـويضة المرأة ويمتـص غـذاءه منهـا، وحين يتـم التلقيح تتعلق البويضة بجدار الرحـم وتبدأ فى امتصاص غذاءها. . قال تعالى ﴿**خلق الإنسان مـن علق**﴾ وفى اللغة: (العلقةُ دودة فى الماء تمص الدم والجمع عَلَقٌ وعَلِقت المرأة حبلت. والعُلَّيـق: نبت يتعلق بالشجر.

(١) سورة الطارق الآيتان ٦، ٧.

وأعلق أظفاره فى الشىء أنشبها[1] .

ومن ثم فإن الحيوان المنوى يعلق بالبويضة وينشب بها ويستمسك .

. . . ثم تصبح العلقة فى نموها وتطورها كقطعة من لحم قدر ما يمضغ لم تتشكل بعد . . وهو ناتج عن الانقسام والتطور من خلق إلى خلق .

قال تعالى : ﴿**فخلقنا العلقة مضغة**﴾ . .

ثم يبدأ تطور الجنين فى مراحله التالية . .

قال تعالى : ﴿**فخلقنا المضغة عظاما**﴾ .

(إن المضغة ليست لحما بل هى خلايا متلاصقة وظيفتها تكوين اللحم والعظم والجلد والشعر والأسنان وكل ما يكوّن الجنين من أعضاء وأحشاء)[2] ولقد ثبت علميا أن العظام تنشأ بعد تطور المضغة مباشرة، وأول ما ينشأ منها هو العمود الفقرى والجزء المركزى من هذا العمود .

وهذه الحقيقة لم تعرفها البشرية إلا بعد نزول القرآن الكريم بقرون طويلة . .

. . وبعد هذه المرحلة يبدأ اللحم فى تشكله فيكسو العظام . .

قال تعالى : ﴿**فكسونا العظام لحما**﴾ .

فاللحم ينشأ بعد العظام . .

والتطور مستمر ومتتابع يفيده حرف الفاء . . حتى يتخلق الجنين

---

(١) مختار الصحاح .

(٢) معجزة القرآن . نعمت صدقى ص ١٤١ .

خلقا كاملاً . . وهو يحتاج إلى زمن لتخلقه . . وتمام تكوينه .

قال تعالى : ﴿**ثم أنشأناه خلقا آخر**﴾ . .

. . وهكذا فإن الآية القرآنية المجملة . . والآيات الأخرى المفصلة . . قد وصفت وصفا دقيقا تطور خلق الجنين من أول لحظة من الحمل حتى يخرج إلى الدنيا إنسانا كاملاً سويا . . والآية تشير إلى حقيقة علمية ثابتة . . وهى إشارة إلى وجه من وجوه الإعجاز القرآنى . .

يقول سيد قطب فى وقفته أمام الآيات من سورة نوح .

(ويمكن أن يكون مدلولها ما يقوله علم الأجنة، من أن الجنين فى أول أمره يشبه حيوا ن الخلية الواحدة . ثم بعد فترة من الحمل يمثل الجنين شبه الحيوان المتعدد الخلايا، ثم يأخذ شكل حيوان مائى، ثم شكل حيوان ثديى . ثم شكل المخلوق الانسانى . وهذا أبعد عن إدراك قوم نوح . فقد كشف هذا حديثاً جداً)[١] . .

الآية الثانية : بعد أن وجه نوح قومه إلى النظر فى أنفسهم، وجههم إلى كتاب الكون المفتوح . . للتأمل والتدبر فى دلائل القدرة والوحدانية .

لقد طالب نوح قومه أن يتملوا عظمة القادر، وينظروا فى اعتبار وتفكير وتدبر الى أن الله خلق سبع سموات، متطابقة بعضها فوق بعض فى إتقان بديع . . وجعل فيها القمر منوِّراً لوجه الارض فيخفف من ظلمة الليل، كما جعل الشمس سراجاً يستضىء به أهل الدنيا . ودلالة اللفظ توضح المعنى .

ولما كان نور الشمس أشد وأتم، وأكمل فى الانتفاع من نور القمر

(١) الظلال جـ ٦ ص ٣٧١٤ .

عبر عن الشمس بالسراج لأنه يضيء بنفسه، وعبر عن القمر بالنور لأنه يستمد نوره من غيره، ويؤيده ما تقرر فى علم الفلك من أن نور الشمس ذاتى فيها ونور القمر عرضى مكتسب)[1] . .

وهذا التوجيه يكفى لإثارة التطلع لإدراك القدرة المبدعة وهو المراد من التوجيه .

ولكن الآية كما رأينا تتضمن فضلا عن هذا التوجيه الإشارة العلمية . . الداخلة فى إطار علم الفلك . .

(ونحن نعرف أن النجوم كالشمس، أجرام سماوية تكمن فيها ظواهر فزيائية شتى نلاحظ من بينها ظاهرة إنتاج الضوء . . فهى بذلك أجرام مضيئة بذاتها . ويتكرر فى القرآن لفظ نجم وجمعه نجوم . . والكواكب لا تضيء بنفسها وهى تدور حول الشمس . . وأحسن تعريف فى القرآن الكريم لكلمة الكوكب هو ما ورد فى آية مشهورة تنطوى على معانى روحية عميقة . . وهى ﴿**الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح فى زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دُرِّى**﴾[2] . والمقصود قذف نور على جسم يعكسه (والجسم هنا هو الزجاجة) فيجعله ساطعا كالدر شأنه فى ذلك شأن الكوكب المنير بضوء الشمس)[3] .

. . وتمضى الآيات البينات التى وجهها نوح إلى قومه لعلهم يدركون القوة القادرة الكامنة وراءها . . حيث وجه نوح قومه إلى النظرة

---

(١) صفوة التفاسير جـ ٣ ص ٤٥٣ .

(٢) سورة النور الآية ٣٥ .

(٣) انظر رأى بوكاى فى القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته جـ ٤ ص ١٣٩/ ١٤٠ .

فى نشأتهم من الأرض وعودتهم إليها بالموت . .

ولقد تردد — فى آيات قرآنية — التعبير عن نشأة الإنسان بالإنبات من الأرض . وهو تعبير موحٍ غاية الإيحاء ، يتخذ من التصوير أداة لإبراز المعنى المراد .

والتصوير يعقد لنا صورة مماثلة تجمع بين طرفين . . فنشأة الإنسان كنشأة النبات . . ولقد اقترن هذان الطرفان معا فى آيات كثيرة . .

ولعلنا نلاحظ أن هذه الصورة الجامعة للإنسان والنبات ، ترد غالبا فى سياق نشأة الإنسان وتطوره من مرحلته الجنينية إلى سوائه الكامل . وتربطه تصويراً بحياة النبات وتطوره على الأرض .

قال تعالى : ﴿**يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنَّا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يُتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا . وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج**﴾(١)

وردت فى هذه الآية القرآنية إشارة علمية أخرى تدور حول المضغة فالمضغة المخلقة هى الجنين ، وغير المخلقة هى المشيمة . . فلا جنين بلا مشيمة وهى التى تمده بالغذاء من دم الأم وتلازمه فى الرحم وتخرج معه .

«تترتب هذه الخلايا إلى كرتين ويزداد حجمها بالانقسام ، وعند الخط بين هاتين الكرتين يوجد أول شىء يمكن أن يسمى جنينا وهو

---

(١) سورة الحج الاية ٥ .

عبـارة عن جسـم مفلطح كُمَّثْرىّ الشكل أو بيضـاوى الشكل ويسمـى بالقرص الجنينى ، وبعد عدة تغييرات يبدو كأنه دودة ثم تكبر هذه الدودة وتكبر حتـى تصير فى حجم المضغـة هذا هـو الجزء المخلق فى الآيـة ﴿من مضغة **مخلقة**﴾ أما المضغـة غير المخلقة فهى الأجـزاء الباقية مـن الكرتين خارج منطقة القرص الجنينى وهى التى ستكون المشيمة (الخلاص)[1] .

وتشير الآيات الكريمـة إلى أن الإنسان حين يعمر طويلا يـرتد طفلا فى عواطفه ووعيـه ومعلوماته ، وفى ذاكـرته التى لا تمسك شيئـاً . طفلا فى أخذه الأحـداث والتجارب ، لا يربط بينهـا رابط . . ثم يفلت مـن عقله ووعيه ذلك العلم الذى تخايل به وتطاول .

وتربـط الآية هنا — كما ربطـت الآيات فى سورة نـوح — بين أطوار حياة الإنسان وبين مشاهد الخلق والإحياء فى الأرض والنبات .

فالأرض هامدة ثم ينزل الماء عليها فتزهو وتربو .

ومرة أخرى نعـود إلى جمال التصوير القرآنى فى حين يرسـم لنا صورة الأرض الجافة وقد تحركـت بفعل الماء حركة اهتـزاز فيه التشرب ، والحركة ، والانتفاخ والتفتح ثم خروج النبات زاهيا جميلا يبهج العين .

والقرآن ينشـىء تصوراً حقيقيـا فى قلب المؤمـن بإدراك العـلاقة بين الأرض والإحياء . فـالناس الذين نبتـوا من الأرض يعودون إلى جوفهـا مرة أخرى . يعيـدهم كما أنبتهم . فيختلطون بـالتراب ، ثم ينبتهم مـرة أخرى حيث الحساب والجزاء .

وهذه الصور الحسيـة التى ترسم لنـا حركة الحياة كلهـا من البدء إلى المنتهـى . . تجعل القلـوب تستشعر قـدرة الله وعظمتـه ، وتوضـح حركـة

---

(١) معجزة القرآن . نعمت صدقى ص ١٤٦ .

الحيـاة والبعـث توضيحـا قـائما على إدراك العـلاقة بين حسيين يـدركـان ويقعان تحت المشاهـدة والتجريب . وهما خلق الإنســان . ونمو النبات . فـالأصل واحـد . . والبذرة تـوضـع فى التربة . . ويخرج الطفـل كما يخرج النبات رابيا . . حتـى إذا جاء الأجل . . عادت الأحيـاء إلى جوف الأرض من جديد . . لتبعـث يوم القيامة . . هذا التوجيـه الحسى ، بعقد الصورة بين أطرافهـا . . يدعو إلى التـأمل والتـدبر فى قدرة الله . . والإيمان بـه وهو التوجيه الذى أراده نوح من قومه .

(وهكـذا يتحـدث القـرآن عـن القــرابـة بين أبنـاء الحيـاة جميعـا ، فيسلكهـم فى آية واحـدة من آيـاته . وإنها للفتـة عجيبة إلى هـذه القرابـة الوثيقة وإنها لـدليل على وحدة عنصر الحياة . وعلى وحـدة الإرادة الدامغة لها هنا وهناك فى الأرض والنبات والحيوان والإنســان . . . وتلتقى نواميس الخلـق والإعادة ، ونـواميس الحيـاة والبعث ، ونـواميس الحســاب والجزاء وتشهـد كلهــا بـوجـود الخلـق المدبـر القــادر الـذى ليـس فى وجـوده جدال)[1] . .

● ثم يوجـه نوح قومه إلى نعمـة إلهية أخرى وهى نعمـة تيسير الحياة على الأرض فلقـد جعل الله الأرض فسيحـة ممتـدة وممهـدة لطرائق الحيـاة المختلفة .

. . والآية تتضمـن تصويـراً حسيا جميـلاً ، يأخـذ بوسـائل الإدراك البشريـة ، ويقتحم مكـامن العقـول المدركـة ، ليحدث الهزة الإيمانيـة فى النفوس — فهـذه الأرض على امتدادها وتنـوعها . . هيأت لـلإنسان — بـإرادة الله — حيـاتـه . . إنها تبـدو فى استـوائهـا ، وتعـم الإنسـان بها ،

---

(١) الظلال جـ ٤ ص ٢٤١١ .

وسلوكه فيها طرقا وتنقلا واستقرار حياة، كالبساط الذى يمتد ويفرض، ويتنعم به الإنسان. . ففى الجبال الراسيات وفى الوديان المنبسطة، وفى الدروب الممتدة، وفى الانفساح الهائل، وفى التوازن بين اليابسة والماء. مشاهدات توجه الإدراك إلى التأمل فى قدرة الله ونعمه.

«قال الألوسى: وليس فى الآية دلالة على أن الأرض مبسوطة غير كروية، لأن الكرة العظيمة يرى كل من عليها ما يليه مسطحا»[1].

فالأرض نعمة الله لعباده، مذللة لخدمة البشرية. تبدو للعين فى حالة استواء واستقرار ولكنها فى الحقيقة مسرعة غاية السرعة، ومع هذه السرعة والدوران الهائل فإنها ذلول تحافظ على ما فوقها. . فهى تشد ما عليها أثناء حركتها الهادرة. . وذلك بفعل الجاذبية.

قال تعالى فى سورة الملك ﴿**هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً**﴾ . . .

وكما أن الأرض ذلول مهيأة لخدمة الحياة عامة. . فهى أيضا مثمرة مخصبة تخرج مما تحويه ما يفيد البشر ويجعل الحياة تنمو وتستمر.

ثم يصبح من الإعجاز هذا الإعداد الإلهى لكوكب الأرض كى يصلح لدوام الحياة إلى أن يشاء الله.

وهذه الأرض التى تبدو منبسطة كالبساط، هى فى الحقيقة ذات شكل كروى. . تدور حول نفسها وحول الشمس بعد انفصالها عنها. .

قال تعالى: ﴿**والأرض بعد ذلك دحاها**﴾[2].

وقال تعالى: ﴿**والأرض وما طحاها**﴾[3].

---

(١) صفوة التفاسير جـ٣ ص ٤٥٣.

سورة النازعات الآية ٣٠.

(٢) سورة الشمس الآية ٦.

والآية تـدل على أن الأرض انفصلت عن الشمس . . وأنها انتـزعت منها : ولقد ورد فى اللغـة أن دحا الشىء بسطه . ودحا المطـر الحصى عن وجـه الأرض . أى نزعـه . كما جاء فى اللغـة أن طحا بمعنـى بسط مثـل دحا .

والله دحـا الأرض فمهدهـا وبسط قشرتها وجعلهـا صالحة للحيـاة والنبات . وأخرج منها الماء والمرعى لدوام الحياة واستمرارها .

(والنظريات الفلكية الحديثة تقرب مـن مدلول النص القرآنى حين تفترض أنـه قد مضـى على الأرض مئات الملايين مـن السنين وهى تـدور دوراتها ، ويتعاقـب الليل والنهـار عليها ، قبـل دحوهـا ، وقبل قـابليتها للـزرع ، وقبـل استقـرار قشرتها على مـا هـى عليـه مـن مـرتفعـات ومستويات)[1] .

وقال تعالى : فى سـورة النازعات ﴿**أخرج منهـا ماءها ومرعـاها**﴾ . فـالماء هو أسـاس الحياة . والحيـاة لا تـوجد فى شـىء إلا إذا كان الماء فيـه بنسبة ما . ولا تـوجد حياة فى شىء جاف . لأن الجفـاف يوقف التغييرات الكيميائية التى هى شرط أساسى لتغيرات الجسم الحى . .

جعـل الله سبحـانـه الماء سببا لاستمـرار الحيـاة وضرورة لها (فـإنـه سبحانه خلق الإنسان من طين ، والطين مـا هو إلا ماء وتراب . كما خلق سبحانه كل جنين فى بطن أمه من إنسان وحيوان من ماء دافق ومن نطفة أمشاج وخلق كذلك كل نبـات على الأرض من تراب وماء ولم تبدأ الحياة على سطح الأرض إلا من وجود الماء)[1] .

---

(١) الظلال جـ ٦ الآية ٣٠ .

(٢) معجزة القرآن ص ٤١ .

فالماء أصل الحياة وسببها، ودليل حفظها.

قال تعالى: ﴿**وجعلنا من الماء كل شىء حى**﴾[1].

والعلم أثبت هذه الإشارة العلمية فى القرآن الكريم. فمن الثابت أن (أصل الكائنات الحية قد تكون فى الماء.. وأن كل الكائنات الحية تتركب أساسا من ماء)[2]. ولقد كشفت الإشارات العلمية فى القرآن ما انتهى إليه العلم فى هذا المجال.

.. إن القرآن الكريم كتاب الله أنزله على محمد ﷺ هداية للناس جميعا. واقتضت الحكمة الإلهية أن ترد فيه الإشارات العلمية فى أسلوب موجز موحٍ لايصطدم مع المتلقى الأول ولا ينفى الحقيقة العلمية أيضا.. تلك الحقيقة الواردة عبر مشاهدات حسية معروفة — تخاطب المدارك العقلية.. وهذه الحقيقة العلمية المشار إليها يسَّرها الله فكشفت عن سرها حين تحققت الأسباب وارتقت العلوم..

وصدق الله العظيم حين قال فى محكم آياته

﴿**سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾..

صدق الله العظيم

---

(١) سورة الأنبياء جزء من آية ٣٢.

(٢) الإسلام والنظر فى آيات الله الكونية د. محمد الشرقاوى ص ٩٧.

فهرس الموضـــوعات

صدر من هذه السلسلة

الرقم	العنوان	المؤلف
٦١-	بين علم آدم والعلم الحديث	الأستاذ محمد شهاب الدين الندوي
٦٢-	المجتمع الاسلامي وحقوق الانسان	د. محمد الصادق عفيفي
٦٣-	من التراث الاقتصادي للمسلمين [٢]	الدكتور رفعت العوضي
٦٤-	تصحيح مفاهيم حول التوكل والجهاد	الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة
٦٥-	لماذا وكيف أسلمت [١]	الشهيد أحمد سامي عبد الله
٦٦-	أصلح الأديان عقيدة وشريعة	الأستاذ عبد الغفور عطار
٦٧-	العدل والتسامح الاسلامي	الأستاذ أحمد المخزنجي
٦٨-	القرآن كتاب أحكمت آياته [٤]	الأستاذ أحمد محمد جمال
٦٩-	الحريات والحقوق الاسلامية	محمد رجاء حنفي عبد المتجلي
٧٠-	الانسان الروح والعقل والنفس	د. نبيه عبد الرحمن عثمان
٧١-	كتاب موقف الجمهوريين من السنة النبوية	الدكتور شوقي بشير
٧٢-	الاسلام وغزو الفضاء	الشيخ محمد سويد
٧٣-	تأملات قرآنية	الدكتورة عصمة الدين كركر
٧٤-	الماسونية سرطان الأمم	الأستاذ أبو إسلام أحمد عبد الله
٧٥-	المرأة بين الجاهلية والاسلام	الأستاذ سعد صادق محمد
٧٦-	استخلاف آدم عليه السلام	الدكتور على محمد نصر
٧٧-	نظرات في قصص القرآن [٢]	محمد قطب عبد العال
٧٨-	لماذا وكيف أسلمت [٢]	الشهيد أحمد سامي عبد الله
٧٩-	كيف نُدَرِّس القرآن لأبنائنا	الأستاذ سراج محمد وزان
٨٠-	الدعوة والدعاة .. مسؤولية وتاريخ	الشيخ أبو الحسن الندوي
٨١-	كيف بدأ الخلق	الأستاذ عيسى العرباوي
٨٢-	خطوات على طريق الدعوة	الأستاذ أحمد محمد جمال
٨٣-	المرأة المسلمة بين نظرتين	الأستاذ صالح محمد جمال
٨٤-	المبادىء الاجتماعية في الاسلام	محمد رجاء حنفي عبد المتجلى
٨٥-	التآمر الصهيوني الصليبي على الاسلام	د. ابراهيم حمدان علي
٨٦-	الحقوق المتقابلة	د. عبد الله محمد سعيد
٨٧-	من حديث القرآن على الانسان	د. على محمد حسن العماري
٨٨-	نور من القرآن في طريق الدعوة والدعاة	محمد الحسين أبو سم
٨٩-	أسلوب جديد في حرب الاسلام	جمعان عايض الزهراني
٩٠-	القضاء في الاسلام	سليمان محمد العيضي

٩١	دولة الباطل في فلسطين	الشيخ القاضي محمد سويد
٩٢	المنظور الاسلامي لمشكلة الغذاء وتحديد النسل	د. حلمي عبد المنعم جابر
٩٣	التهجير الصيني في تركستان الشرقية	رحمة الله رحمتي
٩٤	الفطرة وقيمة العمل في الاسلام	اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي
٩٥	أوصيكم بالشباب خيراً	الأستاذ أحمد محمد جمال
٩٦	المسلمون في دوائر النسيان	أسماء أبو بكر محمد
٩٧	من خصائص الاعلام الاسلامي	محمد خير رمضان يوسف
٩٨	الحرية الاقتصادية في الاسلام	د. محمود محمد بابللي
٩٩	من جماليات التصوير في القرآن الكريم	الأستاذ محمد قطب عبد العال
١٠٠	مواقف من سيرة الرسول	الأستاذ محمد الأمين
١٠١	اللسان العربي بين الانحسار والانتشار	الأستاذ محمد حسنين خلاف
١٠٢	اخطار حول الاسلام	الأستاذ هاشم عقيل عزوز
١٠٣	صلاة الجماعة	د. عبد الله محمد سعيد
١٠٤	المستشرقون والقرآن	د. اسماعيل سالم عبد العال
١٠٥	مستقبل الاسلام بعد سقوط الشيوعية	الأستاذ أنور الجندي
١٠٦	الاقتصاد الاسلامي هو البديل	د. شوقي أحمد دنيا
١٠٧	توجيه وارشاد الشباب المسلم نحو قضاء وقت الفراغ	عبد المجيد أحمد منصور
١٠٨	المخدرات مضارها على الدين والدنيا	الدكتور ياسين الخطيب
١٠٩	في ظلال سيرة الرسول ﷺ	الأستاذ أحمد المخزنجي
١١٠	أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	محمود محمد كمال عبد المطلب
١١١	زينة المرأة بين الاباحة والتحريم	د. حياة محمد على عثمان خفاجى
١١٢	التربية الاسلامية كيف نرغبها لأبنائنا	د. سراج محمد عبد العزيز وزان
١١٣	النموذج العصري للجهاد الأفغاني	عبد رب الرسول سياف
١١٤	المسلمون حديث ذو شجون	الأستاذ أحمد محمد جمال
١١٥	الترف وأثره في المجتمع من خلال القرآن الكريم	ناصر عبد الله العمار
١١٦	المسلمون في بورما .. التاريخ والتحديات	نورالاسلام بن جعفر على آل فايز
١١٧	آثار التبشير والاستشراق على الشباب المسلم	د. جابر المتولي تميمة
١١٨	اللباس في الاسلام	أحمد بن محمد المهدي
١١٩	أسس النظام المالي في الاسلام	الأستاذ محمد أبو الليث
١٢٠	المستشرقون والقرآن [٢]	د. اسماعيل سالم عبد العال

١٢١- الإسلام هو الحل — **القاضي الشيخ محمد سويد**
١٢٢- نظرات في قصص القرآن — **الأستاذ محمد قطب عبد العال**
١٢٣- من حصاد الفكر الإسلامي — **د. محمد محي الدين سالم**
١٢٤- خواطر اسلامية — **الأستاذ ساري محمد الزهراني**
١٢٥- الإسلام ومكافحة المخدرات — **الأستاذ اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي**
١٢٦- دروس تربوية نبوية — **الأستاذ صالح أبو عراد الشهري**
١٢٧- الشباب المسلم بين تجربة الماضي وآفاق المستقبل — **د. عبد الحليم عويس**
١٢٨- من سمات الأدب الإسلامي — **د. مصطفى عبد الواحد**
١٢٩- خطوات على طريق الدعوة [الجزء الأول] — **الأستاذ أحمد محمد جمال**
١٣٠- خطوات على طريق الدعوة [الجزء الثاني] — **الأستاذ أحمد محمد جمال**
١٣١- المسجد البابري قضية لا تنسى — **عبد الباسط عز الدين**
١٣٢- التدريس في مدرسة النبوة — **د. سراج عبد العزيز الوزان**
١٣٣- الإعلام الإسلامي ووسائل التصال الحديث — **الأستاذ ابراهيم اسماعيل**
١٣٤- تسخير العلم والعمل لمجد الإسلام — **د. حسن محمد باجودة**
١٣٥- منهاج الداعية — **الأستاذ أحمد أبو زيد**
١٣٦- في جنوب الصين — **الشيخ محمد بن ناصر العبودي**
١٣٧- التنمية والبيئة دراسة مقارنة — **د. شوقي أحمد دنيا**
١٣٨- الشريعة الإسلامية شريعة العدل والفضل — **د. محمود محمد بابللي**
١٣٩- سقوط الأيديولوجيات — **الأستاذ أنور الجندي**
١٤٠- الطفل في الإسلام — **الأستاذ محمود الشرقاوي**
١٤١- التوحيد فطرة الله التي فطر الناس عليها — **فتحي بن عبد الفضيل بن علي**
١٤٢- لمحات من الطب الإسلامي — **د. حياة محمد علي جفاجي**
١٤٣- الإسلام والمسلمون في ألبانيا — **د. السيد محمد يونس**
١٤٤- أحمد محمد جمال (رحمه الله) — **مجموعة من الأساتذة الكُتّاب**
١٤٥- الهجوم على الإسلام — **الأستاذ أحمد أبو زيد**
١٤٦- الإسلام والنظام العالمي الجديد — **د. حامد أحمد الرفاعي**

طبع بمطابع رابطة العالم الاسلامي في مكة المكرمة